
روايات مصرية للجيب
53
د. أحمد خالد توفيق
فانتازيا
بحّاران
Looloo
www.dvd4arab.com

مقدمة

(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق .. إلى حد يخطف الأبصار .. إنها الشخص الذى نتمنى إلا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا .. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أوالقوة أوالبراعة أوالذكاء .. لكن لا بد من شىء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها .. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة .. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق .. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر .. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشىء .. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة ..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا .. أنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط ، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب ، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام ، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع ، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة ، بل يشارك فيها كذلك .. ومن البدهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا .. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا) ..

إن (عبير) كريمة النفس ؛ لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير .. سوف تصحبنا معها .. سوف نعبر معها

عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما .. سوف تقابل ونحن معها العبقرى المخيف (دستويفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين) .. سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان .. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته .. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة ، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب .. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة ، أو تهدد المقصلة عنقها ، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء ، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب) .. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول ..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى : لا قواعد .. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى : لا حدود ..

إن جرس المحطة يدق ، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار .. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار .. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة ..

لقد حان موعد قصة أخرى ..

1ـ إلى أيـن ؟

إلى أين يا (عبير) هذه المرة ؟

هل إلى عوالم تجـوب فيهـا الأشباح أروقة القصور المهجورة وتشرب أنخاب الدم ، بينما تدوى صرخات الأطفال الخائفين ؟

هل إلى عوالم تفتح فيها المومياوات عيونها مستجيبة للعنة منسية ؟

إلى أين يا (عبير) هذه المرة ؟

ربمـا إلى عوالم تسبح فيهـا أوراق (الباتسـيه) على صفحة مياه الجداول ، على حين يطلق كيوبيد سهامه ليدمى القلوب ، بينما تنحدر دمعتان من عين مؤرقة ..

ربما إلى عوالم يقف فيها العشاق يرمقون الشمس الدامية وهى تغرق مياه البحر بدمها ، بينمـا يقرر الكروان أن الوقت قد حان ليستحق شهرته ..

إلى أين يا (عبير) هذه المرة ؟

هل إلى عوالم تجوب فيها المدرعات الشوارع المشتعلة ، بينما جنازيرها تحطم أحلام الشباب وألعاب الأطفال ؟

هل إلى عوالم يقف فيها الجنرالات بمعاطفهم الطويلة يتأكدون بعناية من أنه لا يوجد موضع خال من نيرانهم ودخانهم ودم أعدائهم ؟

إلى أين يا (عبير) هذه المرة ؟

ربما إلى عوالم تحلق فيها المكوكات مسرعة من مجرة لأخرى ، قبل أن ينطلق شعاع الليزر ليدمر كل شيء في طريقه ، وربما يدمر المومياوات والعشاق والجنرالات كذلك ...

إلى أين يا (عبير) هذه المرة ؟

ربما إلى عوالم يركب فيها اللوردات المتأنقون عرباتهم ويدخنون الغلايين ، متجهين إلى ذلك النادى الأنيق من أندية لندن ، أو عوالم يفتش فيها علماء الآثار بين المقابر المنسية ، أو إلى عوالم يتواثب فيها طرزان من شجرة لأخرى وهو يطلق صرخته المدوية الشهيرة ..

حقًا أنت لا تعرفين ...

تغلقين عينيك وتتركين أمرك للمرشد يتولى أمرك ، وتأملين فقط أن تكون مغامرة الليلة ممتعة ..

****

يجلس الشيخ على ضفة الخليج وقد أراح ذقنه إلى عصاه ..

بما أن الشمس من خلفه ؛ فقد صار فى وضع (سلويت) رائع الجمال وقسماته الصخرية تنحفر على الخلفية. لابد أن أى مدير إضاءة فى السينما العالمية سوف يسيل لعابه لدى رؤية هذا المشهد ..

البحر مظلم لكنك ترى الأمواج محددة بلون ذهبى وهاج ، وهناك فى المركز حيث الشمس الغاربة يخلق مزيج الألوان العجيب هذا ، الذى لا هو أصفر ولا أزرق ولا أحمر ولا أرجوانى .. هو كل شىء ..

وقسمات الشيخ !

ما أروعها !.. لحظة الاكتمال الكبرى عندما تصل الملامح البشرية لنهاية رحلتها ..

تقترب منه وتزحف على ركبتيها فوق الرمال ، ثم تخرج جهاز التسجيل وتسأله فى كياسة :

ـ « هل تسمح لى ؟ »

لم يبد أنه سمعها . فقط راح يترنم بلحن ما حزين الطابع وهو يدق بعصاه على الرمل ..

سألته :

ـ « هل تحب أن تكون وحيدًا ؟ »

قال بصوت واهن دون أن ينظر لها :

ـ « سوف أكون وحيدًا للأبد عما قريب جدًا .. بالطبع أحب بعض الصحبة البشرية الآن ما دمت حيًا .. »

ضغطت على زر جهاز التسجيل وسألته :

ـ « هل ما تشعر به هو الندم أم الرضا عن النفس أم الحزن أم السرور ؟ »

ـ « التعب .. »

قالها بصوت يخرج من أعماق أعماق أعماقه .. حقًا لو كان للتعب صوت فهو هذا .. صوت يخرج من عند قوس الأورطى .. ربما ما بين المرىء والقصبة الهوائية .. ربما من برزخ الغدة الدرقية ..

ـ « التعب .. »

ويضرب بعصاه من جديد ولا يعلق أكثر .. فتسأل هى :

ـ « التعب من أى شىء ؟ »

- « لم تكن حياتى سهلة يا بنيتى .. لم تكن سـهلة على الإطـلاق .. يخيل لى أن القبر هو راحة مستحقة لى كى أنام حتى السـاعة .. إن جسدى واهن لكن عقلى يتواثب كـالدرافيل ولا يهمد لحظـة ، هو ذا يفكر فى أن يبدأ كتابًا جديدًا .. أنا بحاجة إلى أن أريح هذا العقل .. »

- « هل تعتقد أنك كنت السبب فى كل ما حدث ؟ »

- « لم أفكر فى هذا وأؤمن أنه لا ذنب لى فيه .. »

ثم أخرج خنجرًا يمنيًا جميلاً من نطاقه ولوح به :

- « يمكن أن أستخدم هـذا كزينة .. يمكن أن أقطـع به غصنـا يعوق طريق الناس .. يمكن أن أذبـح به شخصًا بريئًا .. الخنجـر لا ذنب له فيما يحدث .. الخنجر أداة .. »

- « وأنت لعبت دور الخنجر ؟ »

- « نعم .. ولو تكرر الاختيـار لفعلت الشيء ذاته بشرط ألا أعلـم الغيب .. هذا هو قانون البحر يا بنيتى .. »

كـان يتكلم بينمـا الإضـاءة من خلفـه تخفت وتخفت حتى صـار الظـلام دامسًا .. يبدو أن الصورة لم تـرق للظـلام فتناول قبضـة من النجوم بعثرها على ثوبه ليكسر حدة الرهبة ..

لكنها كانت ترى وجهه ..

تسمع الموج العاتى يرتفع ويتصارع فتشعر بقشعريرة .. الحقيقة أن هذا العجوز ينتمى بشكل ما للبحر المهيب من خلفه. كلاهما أكبر من الحياة .. فوق الواقع .. إنهما أسطوريان ..

لكن العجوز سيموت .. لا شك فى هذا بينما يبقى البحر ..

ترى هل يموت البحر أيضًا بعد ملايين السنين ؟

لقد ولد .. وكل ما ولد سيموت ..

كانت تفكر فى هذا كله وهى تتذكر هذه التجربة الصحفية الفريدة ..

* * *

2ـ من أجل حفنة من الفلفل ..

كانت هناك تقف جواره على سطح السفينة (ساو جابرييل) ..

البحر هـادئ صموت يبدو أنه يشعر بالملل .. يكفى أن يشعر المرء بالملل حتى تصاب الأشياء بالملل كذلك .. لم تكن (عبير) ميالة إلى المقولات على غرار أن الكون كما نراه نحن ، لكنها شعرت أنها موشكة على تصديق ذلك ..

كانت رحلة طويلة شاقة بلا مخاطر تقريبًا وقد خطر لها أن مهنة الصحفى ليست مثيرة دائمًا ..

رفعت رأسها تتأمل الطابع الغربى المميز للسفينة ، وتلك الأعلام التى عليها صلبان .. بالذات ذلك الصليب الذى تتسع شفراته عند الحواف ويدعى (صليب مالطة) .. هذا طابع أسبانى أو برتغالى لا شك فيه .. فى ذلك العصر كانت القوتان العظميان المعروفتان هما إسبانيا والبرتغال .. فقط كى تنزلقا من المقعدين وتجلس مكانهما إنجلترا وفرنسا .. ثم تنزلقان لتجلس أمريكا والاتحاد السوفييتى .. وسرعان ما جاءت ولايات متحدة متضخمة الردفين لتجلس على المقعدين معًا .. على قدر علم (عبير) لم يحدث هذا الموقف فى التاريخ من قبل ..

يعرف قراؤنا المخضرمون أن (عبير) كثيرًا ما تجد نفسها فى فانتازيا محررة لجريدة (الحقيقة الوحيدة) التى لا يعرف الناس أنها فعلاً الحقيقة الوحيدة. هذه هى الجريدة الوحيدة التى تملك طريقة ترسل بها محرريها للقاء الشخصيات التاريخية ، وعندما تنشر الجريدة لقاء صحفيًا مع بونابرت أو محمد على فإن القراء يفترضون أنها مجرد حيلة بلاغية (سخيفة بعض الشىء) لتغيير طريقة (الإخبار) التقريرية المملة ، لكن الحقيقة هى أن هذا حديث صحفى فعلاً ..!

هذه المرة طلب منها الأستاذ فوزى أن تكون موجودة فى هذا الزمن مع (فاسكو دا جاما Vasco da Gama) المستكشف البرتغالى الشهير . معنى هذا أن ترحل لما بين العامين 1469 و 1224 .

كانت الرحلة هادئة والانتقال سهلاً ، وسرعان ما وجدت نفسها على ظهر ذات السفينة مع المستكشف الذى طبقت شهرته الآفاق . طبعًا كانت تتكلم البرتغالية بطلاقة كأنها (بيليه) شخصيًا ، ولم يكن القبطان ودودًا لكن سلطة (فانتازيا) الكاسحة اضطرته لأن يكون كذلك ..

القبطان (دا جاما) الشهير هو رجل قوى البنيان ، له أنف معقوف غريب ، وفى عينيه نظرة شرسة قاسية .. هناك لحية لا تكسب وجهه رقة ، وطبقًا للموضة السائدة يلبس تلك الثياب التى تجعل كفيه أعرض وساقيه أرفع ، وهذا لم يفد كثيرًا فى تقليل طابع السماجة العام ..

لكن الرجل مهم جـداً .. أنـه مـن أعظـم المستكشفين فـى ذلـك العصر .. كل صحفى يتمنى أن يقف معه هذه الوقفة المنفردة عند ميمنة السفينة ..

قال لها القبطان وهو ينظر للبحر :

ـ « أنت تعرفيـن أنه فى الظـروف الطبيعيـة لا نسمح لامـرأة بركوب السفينة .. هذه قواعد البحـر ، وقـد اضطررنـا لعمـل استثناء كبير .. »

ـ « شكرًا يا قبطان .. »

ـ « تقولين إنك صحفيـة ؟ .. هذه مهنـة لا نعرفها ولا نفهمهـا ، لكنك تقولين إنهـا سبيلى إلى المجد وأن تعرف الأجيـال القادمـة تفاصيل بطولاتى .. »

ـ « فعلاً يا قبطان .. »

مد يده إلى جيبه وأخرج بين أنامله شيئًا لم تتبينه (عبير) .. لكنـه رفعه إلى أنفـه واستنشق بعمق ثم عطس ، وترك الحبيبات السوداء تتطاير مع الهواء ..

قال لها :

ـ « أنا ثرى جداً .. أسرتى من النبلاء ، ولهذا أقدر على أن أحمل هذه الحبيبات السوداء باهظة الثمن فى جيبي ، وأرميها فى البحر إذا شئت .. إنه الفلفل !! »

ـ « فلفل ؟ »

وكانت قد شمت الرائحة فعرفت ما هو .. هـذا الرجل لا يتكلم عن الذهب ولا الفضة ولا اليورانيـوم إذن .. معنـى هذا أن أمهـا ثرية كقارون ، ويمكنها أن تشترى قـارة كاملـة فـى ذلـك الزمـن. فلتتذكر هـذا .. لو مرت مـرة أخرى بتجربة آلة الزمن فعليها أن تحمل معها عدة كيلوجرامات مـن الفلفل لتشترى كل شىء علـى ظهر البسيطة ..

قال لها وهو يشم أنامله :

ـ « التوابل ..!.. مـن أجل التوابـل خرجت الحمـلات ونشبت الحروب وغرقت الأسـاطيل .. صدقينـى .. إن ثمـن الجرام منهـا أغلـى من جرام الذهب بكثير .. السبب هو بُعد الهند وجـزر التوابل عن أوروبا ، ولهذا نقطع البحار بحثًا عن طريق مختصـر يقصر الرحلة من وإلى الهند .. »

قالت متخابثة :

ـ « وبعض الاستعمار كذلك .. »

ـ « هذا شيء لا أنكره .. من الجميل أن نضم المزيد من القارات والبلدان إلى أملاك الملك (مانويل الأول) العظيم .. »

ثم وضع يده فوق عينه محاولاً أن يرى بوضوح أكثر ، فقالت عبير:

ـ « لم لا تستعمل التلسكوب كالجميع ؟ »

ـ « لم يُخترع بعد .. هناك طابع بريد شهير يظهر (ماجلان) وهو ينظر إلى الأفق بتلسكوب ، وهذا خطأ قاتل لأن التلسكوب اخترع بعد زمن ماجلان بمائة عام .. لهذا تم سحب هذا الطابع وصار ثمنه خياليًا .. »

ـ « أنت تعرف ماجلان ؟.. إنه لم يأت بعد .. »

ـ « هذه هى فانتازيا .. وهذا هو الناتال ! »

قالها وهو يشير إلى الساحل .. الناتال كلمة برتغالية معناها (عيد الميلاد) ولهذا يمكن استنتاج أنه بلغ هذا الساحل فى عيد الميلاد ، وما زال هذا الاسم باقيًا حتى اليوم ..

ثم تركها وراح يسكب السباب البرتغالى على رأس بحارته وضباطه .. إن هذا الرجل يعرف كيف يكون قاسيًا عنيفًا متى أراد وهى سمة مهمة فى القادة ، لكنه يعرف كذلك كيف يكون بذيئًا جدًا .. هذا غريب بالنسبة لرجل من أصل راق مثله ، لكنه يدل على أنه عاش مع البحارة منذ طفولته وهو ما حدث فعلاً ..

* * *

نترك (عبير) مع فاسكو دا جاما المولـع بالسباب علىَ ظهر سفينته لنضع بعض النقاط فوق الحروف ...

لقد قضى البرتغاليون وقتًا طويلاً يحـاولون أن يلتفوا حـول الساحل الغربى لأفريقيا ليصلوا إلى الهند ، والسبب طبعًا هو أنـه لا توجد طريقة حالية لبلوغ الهند إلا عن طريق البر .. تخيل الرحلة المريعة البرية بالقوافل من البرتغال إلى الهند ثم العودة . لهذا كان سعر التوابل كما رأينا ..

جربوا الإبحار على ساحل أفريقيا ولكن كانت الرحلة طويلـة جـدًا .. يبـدو كـأن القـارة الأفريقيـة تمتـد إلى الأبد للجنــوب وبلا نهاية ..



لو تأملت صورة أفريقيا لرأيت جمجمة بشرية عملاقة .. يمكنك أن تتخيـل السـفن البرتغاليــة تنزلق على الجانب الأيمن من هذا الرأس الكبير باحثـة عن طريق لبلـوغ الجـانب الأيسر ، لكن هذا مستحيل كما يبدو .

أنـت تعرف أن هنـاك طريقـة ، لكـن تذكـر هؤلاء القـوم الذيـن ينقبون بلا خرائط ولا صور أقمار صناعية ولا تجـارب سـابقة .. من الوارد جدًا أن تكون أفريقيا ممتدة للأبد نحو الجنوب فعلاً ..

فيما بعد مر (ماجلان) بتجربة سوداء مماثلة وهو ينقب علـى السـاحل الغربـى لأمريكـا الجنوبيـة عن طريقـة يلتف بهـا ليبلـغ المحيط الهندي ، وبالصدفة وجد ذلك المضيق الذى يحمـل اسمه إلى اليوم : (مضيق ماجلان) ..

لكن (بـارتلميو ديـاز Bartolomeu Dias) وصـل إلـى أقصـى الجنوب .. إلى طرف الفك السفلى للجمجمة ، وكانت رحلته عنيفة جدًا حتى إنه أطلق على المكـان اسم (رأس الأعاصير) ، ثم اكتشـف أنه لو دار حول هذه النقطة لبلغ الجانب الآخر من الجمجمة ..

فجـأة تغير مزاجه عنـدما هنـأه ملك البرتغال على اكتشـافه ، وكان الملـك هـو مـن اقترح الاسـم الجديـد .. لم يعـد يطلـق على المكـــان (رأس الأعاصير) بل يطلـق اسـمًا مبهجًـا هـو (رأس الرجاء الصـالح) ، وهـو الاسـم الـذى مـا زالـت كتـب الجغرافيا تذكره حتى اليوم ..

الآن صارت مشكلة البرتغال هى استخدام هذا الطريق للوصول إلى الهند ، لكن كيف ؟

هناك مشكلة أخرى تضايق البرتغاليين هى المسلمون الموجودون فى كل مكان تقريبًا .. يجب التخلص منهم ومن تجارهم شديدى النشاط ..

هذه هى المهمة التى أوكلت إلى (فاسكو دا جاما) .. فى الحقيقة أوكلت إلى أبيه أولاً لكنه مات قبل أن يقوم بها ..

وفى العام 1497 ـ عام الرب البركة كما تقول الوثائق ـ خرج أسطول فاسكو دا جاما يبحر فى نفس المسالك التى زللها العظيم (بارثلميو دياز) من قبل ...

هذه هى الرحلة التى تشهدها (عبير) وترى أحداثها رؤية العين ..

* * *

صاح الناضورجى من أعلى بصوته الحلقى الذى غيرته ظروف المهنة :

ـ « سفينة على مرمى البصر ..!

نظر (فاسكو) إلى الأفق فلم ير شيئًا .. لحظات احتبست فيها الأنفاس ، ثم بدأ الشراع يظهر ..

لا توجد أية علامات على هذه السفينة القادمة ، لكنها سريعة فعلاً خاصة والريح معها .

وقفت (عبير) متوترة جـوار القبطان البرتغالى الذى قال لهـا فى شىء من السخرية :

ـ « سفينة سريعـة بلا علامـات ومصرة على أن تلتحم بنـا .. هل عندك تفسير ؟ »

قالت فى ذعر التفسير الوحيد الممكن :

ـ « قراصنة ! »

ـ « إن هذه المنطقة تعج بهم ، وقد قمت بحرق بعض سـفنهم من قبل .. إن هـذا يجعـل الحيـاة محتملة .. يبدو أنـك ستظفرين بتحقيق ممتاز ! »

ـ « لكنهم لا يعلقون علم الجمجمة و ... »

قال فى ملل كعادته :

ـ « أوه ! .. أنت تتكلمين عن عصور حديثة نسبيًا بالنسبة لك .. عصـور (سـيركوف) والسـير (مورجـان) والقبطـان (كيـد) .. تتكلمين عن علم القراصنـة المعروف باسم (روجر المبسـوط Jolly Roger) الذى سيستعمله أولاً القرصان (إدوارد إنجلانـد) فى القرن الثامن عشر .. نحن متأخرون جدًا عـن هذه الأسـاليب المتقدمة .. »

ثم صاح بأعلى صوته :

ـ « استعدوا للقتال !.. دينار لمن يظفر برأس قائدهم !.. أريد أن نلاقيهم رأسًا لرأس ! »

ودارت السفينة العملاقة وزادت من سـرعتها متجهـة نحـو سفينة القراصنة ..

* * *

3ـ آرام وراميشا ..

فى هذا الوقت بالذات تفرغ (راميشا) مـن نثر قرون الشطة الحمراء على الحصيرة أمام الدار ..

سوف تحتاج إلى أيام لتجف ، وبعدها يكون عليها والنسوة أن يسحقنها ليحصلن على المسحوق الأحمر الذى لا يستقيم المزاج الهندى من دونه : الشطة .. إن هؤلاء القوم قد أخذوا الكثير من طباع الشطة فى خلاياهم ، لهذا هم أقـرب إلـى النـيران فـى حماسهم .. فى حبهم .. فى غضبهم ..

مهمة عسيرة لأنها سوف تجعل يديها تحترقان بالنـار ، لكن هذه هى حياة العذراء الهندية .. فإذا تزوجت كانت هذه هى حياة السيدة الهندية ..

المسجد القريب يعلن صلاة الظهر ، و(راميشـا) هندوسية .. لكن فى ذلك الوقت فى (كاليكوت) بالهند ، شمال ولايـة كيرالا ، لم يكن هناك من يسألك عن دينك ما دمت تحسن معاملة الآخرين وتؤدى لهم حقوقهم .

لا تخفى أنها تشعر بسرور ونشوة عندما تسمع صوت الآذان المميز ، والذى تعتقد أنه أروع صوت سمعته برغم أن المسلمين الذين ذهبوا للحـج فـى تلك البلاد البعيدة قـالوا إن هذا الصوت

لا شيء .. مخارج الحروف خطأ ولا يمكن أن تقارنها بصوت الآذان من الحناجر العربية كما سمعوه هناك ..

قابلت الكثيرين من العرب .. إنهم في كل مكان هنا ، وهم تجار بطبيعتهم .. بارعون حقًا ولهم عيون حساسة لما يمكن شراؤه أو بيعه .. المهم أن هذا كله يتم في جو من التراضي والسماحة بين الطرفين ..

أمس رأت تاجرًا عربيًا يلعب مع طفل في الخامسة .. الطفل يكيل اللكمات للتاجر الذي جثا على ركبتيه أمامه ، فسقط التاجر على الأرض كأن الضربة آذته فعلاً .. مما جعل الصبي يضحك حتى سال الدمع من عينيه ..

قالت أمها وهي تنسج على النول :

ـ « هذه حركات يكسبون بها النفوس .. عندما تكسب الأطفال فأنت تكسب أهلهم .. »

ـ « وماذا يريدون من كسب الأهل ؟ »

ـ « لا شيء .. فقط يميل العربي إلى أن يكون محبوبًا في الوسط الذي هو فيه .. هكذا انتشر الإسلام في الهند يا (راميشا) عن طريق حسن المعاملة ولمسات ذكية بسيطة كهذه ، بينما لا يمكن للسلاح أن يقهر الهنود .. هذه بلاد مترامية الأطراف أهلها شديدو الكبرياء والمراس .. لا يمكن إرغامهم على أي شيء بالقوة .. »

كانت الأم تقرر حقيقة مهمة. لا يمكن فرض أى دين بالسيف .. ما حجم الجيش الذى يقدر على احتلال جزر مترامية شاسعة لا حصر لها مثل (أندونيسيا) ؟.. كيف يمكن فرض عقيدة على شعب حساس غضوب لا ينسى الثأر أبدًا ؟.. لا يمكن .. لكن الإسلام لم يغز أندونيسيا بل دخلها بالمعاملة وحدها ..

المسيحية لم تدخل أفريقيا بوساطة المدفع والبندقية .. هذا مستحيل .. لكنها دخلت عن طريق المبشر الذى يعالج جراح الوطنيين ويداعب أطفالهم ويعلمهم ، ويجلس معهم وسط الأدغال محاولاً تحاشى لدغات ذبابة (تسى تسى) القاتلة ..

(راميشا) لا تعرف هذا ولا يهمها أن تعرف لأن لديها مشاكلها الخاصة. تعرف أن عليها الكثير من العمل فى شئون البيت .. شئون البيت الهندية التى لا تنتهى والتى يعد تجفيف الشطة قطرة منها ..

وكانت تفكر فى (آرام) ..

ترى ماذا يفعله الآن ؟..

غدًا سوف تزور المعبد وتقدم بعض القرابين للكاهن لعله يصلى لها صلاة خاصة ..

* * *

منذ الطفولة كان (آرام) هناك ..

من الذى يحضر لها ثمار المانجو الشهية ؟.. من الذى اصطاد (فرس النبى) وربطه بخيط فى عنقه وجلبه لها كى تلعب به ؟.. من الذى ذهب قرب المعبد وجاء بذلك القرد الصغير لها ، حتى عرَف الكبار ووبخها أبوها بشدة لأن القردة التى تلعب حول المعبد مقدسة ..؟

إنه (آرام) ..

(آرام) لم يكن جميلاً ، لكنه كان خفيف الحركة بطريقة فاتنة ، دعك من عينيه الواسعتين السوداوين شديدتى الحساسية .. ترقصان فى محجريهما بسرعة لا تصدق ..

كان معجبًا بها .. تعرف هذا ..

يوم راحت ترقص مع صديقتها على نغمات المعزف ، وهى تحاول بصعوبة أن تجعل أصابعها تؤدى الحركات شديدة التعقيد التى يجب أن تعرفها الراقصة الجيدة ..

كانتا تتحركان معًا .. تسربت الموسيقا إلى روحيهما فلم تعد لهما إرادة .. الموسيقا كانت تحرك العضلات مباشرة دون أن تتوقف عند الأذنين أو العقل ..

رفعت عينها لتجد أنه يتعلق بأغصان الشجرة العجوز ويراقبها فى اهتمام ..

رأته صاحبتها فصرخت فى ذعر :

- « ولد !.. ولد ! »

وانحنت لتلتقط بعض الحصى وراحت تقذف الصبى المتسلل .. هكذا راح يتواثب بين الأغصان مبتعدًا .. لكن (راميشا) عرفت على الفور أنه جاء من أجلها هى ..

تمر الأيام ويكبر (آرام) .. ما زالت عيناه تحتفظان بذات اللمعان والنشاط ، لكن جسده امتلأ بالعضلات وصار له صوت خشن رخيم ..

(آرام) يريد أن يحقق ذاته وأن يرى العالم .. يريد أن يكون رجلاً ..

(آرام) يرحل مع أحد التجار العرب المتجهين إلى أفريقيا . هناك فى جنوب أفريقيا جالية هندية عظيمة سوف يكون هو من رجالها ، لكنه يعدها بأن يعود عما قريب ثريًا قويًا والأهم مليئًا بالخبرات ..

- « الهندى يعيش ويموت من دون أن يرى حوتًا .. أنا سأرى حيتانًا كثيرة هناك .. إن المحيط يعج بها .. »

سوف يرى قومًا لجلودهم لون الليل .. هناك قوم بيض البشرة كالحليب .. هناك سفن عليها مدافع ..

سوف يرى أشياء وأشياء تختلف عن (كاليكوت)..

كان هذا غريبًا بالنسبة لمن عرفوه. كان صادمًا لكن الفتى كان كالعادة يشعر بتلك النار المتقدة لدى الشباب ، والتى تجعلهم يريدون الذهاب إلى زمن آخر ومكان آخر لعمل أشياء أخرى ..

هكذا رحل (آرام) مع التاجر العربى ، وبقيت هى فى بيتها تجفف قرون الشطة .

تجفف قرون الشطة ..

تجفف قرون الشطة ..

* * *

لم تكن راميشا تعرف ولو عرفت لجن جنونها .

كان آرام الآن يواجه خطرًا مروعًا وهو يرى سفينة القراصنة تقترب من أسطول فاسكو دا جاما ..

لقد ترك العمل مع التاجر العربي ، وعمل لفترة على البر ، ثم التحق بالأسطول البرتغالى حيث عاش أسود أيام حياته .. لقد تحمل لأنه يعرف أن القبطان (دا جاما) متجه إلى الهند .. هذا يتيح له العودة للوطن ..

لكنه الآن فى خطر داهم فعلاً ..

4ـ من هذا البطل ؟

التحمت السفينتان ..

وبرغم ضخامـة السفينة البرتغاليـة فإنها بدت ثقيلـة الحركـة مهيضة الجناح عندما احتكت بها سفينة القراصنة الرشيقة ..

لا تعرف من أين هوى الخطاف الثقيل ، ولا كيف طـار خطـاف آخر ليتمسك بالسارية ، وفوق الحبال ركض رجال سود خفيفو الحركة كالقـردة ، عـراة الجذوع ، بين أسنان كل منهم سيف أو خنجر .. أقوياء البنية كالوحوش ، شرسون كالتماسيح ..

من الواضح أنهم من السكان الأصليين لهذه المياه ، وقـد انطلقوا يعملون الطعن والذبح فى البحارة ..

من أعلى الصارى وثب شاب خفيف نحيل قوى كالفهود فـأوقع قرصانين فى الماء بركلة من قدمه ، ثم هبط على قدميه فـأخرج خنجرًا وغرسه فى قرصان ثالث .. وقبل أن يسقط القرصان كـان قد استعار سيفه وراح يعمل القتل ..

خرج دا جاما من مكمنه حاملاً سيفين ، وراح يضرب بحركـة ميكانيكية لا تتعب ..

أما (عبير) التى راحت تراقب كل هذا الهول من مخبئها تحت قارب نجاة ، فقد عجزت نهائيًا عن توقع المنتصر .. لو سيطر القراصنة على السفينة فلا مفر من الوثب فى الماء .. الماء الذى يلتقى فيه المحيطان والذى لن يكون رفيقًا معها .. ستكون مغامرتها كفيلة بجعل ما حدث لركاب التيتانيك نزهة فى الملاهى ..

دا جاما القوى يضرب ذات اليمين وذات اليسار ويبدو عصيًا على الطعن ، حتى إنه هشم رمحين كانا يطيران نحو صدره .. لم تلحظ من قبل كم هو ضخم عملاق .. ثم إن عينيه تشعان شررًا يمكن أن يحرق ..

لكن لو كنت ريحًا فمن الحتمى أن تقابل إعصارًا ، وقد برز من بين القراصنة ذلك العملاق الذى تراه فى كل الأفلام تقريبًا .. كرش ضخم يحبسه فى مكانه بسيور جلدية تحيط بالكتفين والبطن على شكل علامة X .. ورأس أصلع ووجه مليء بالندوب ..

تقدم العملاق وهوى ببلطة على سيف دا جاما فحطمه ، وقبل أن يضربه دا جاما بالسيف الثانى كان قد حطمه بدوره ..

الآن صار القبطان البرتغالى وحيدًا أعزل .. يتراجع للخلف ورجاله بعيدون ، والعملاق يتقدم نحوه ببلطة من الواضح أنه يستخدمها ببراعة ..

يتراجع دا جاما نحو ميمنــة السفينة وهو يعرف أنـه سيقابل الحاجز بعد قليل ..

عندها سوف تهوى الضربة ..

يتراجع ..

يتراجع ..

هنا من مكان ما هوى ذلك الشاب رشيق الحركـة فوق كتفى العملاق ليحيط رأسه بفخذيه. صرخ العملاق ورفع البلطة محاولاً تحطيم رأس هذا الـذى امتطى كتفيه ، لكن الفتى تفادى الضربـات ببراعة ، ثم مرر نصل سيفه بخفة تحت ذقن العملاق من الخلف ..

ووثب فى الوقت المناسب قبل أن يسقط جبل اللحم والعضـلات هذا على الأرض ..

يـا للدمـاء !.. كميـة تكفـى لإغراق سفينة فعلاً .. إن معدتـها تتقلص ..

نظر (فاسكو دا جامـا) لمنقذه فى رضـا .. من الصعـب أن تشيع نظرة رضا على هذا الوجه المتعالى الصارم لكنـه فعلها ، وسرعان ما كان يلتقط سيفًا من كف أحد القتلـى وينطلـق للمزيـد من ضرب الرقاب ..

بدأت الكفة تميل لصالح البرتغاليين بشدة ..

وبدأ القراصنة يشعرون بالخطر ويتصايحون أن وقت التراجع قد حان ، لكن البرتغاليين سدوا عليهم طريق الفرار.

فى الوقت ذاته عبر بعض البرتغاليين إلى سفينة القراصنة وبدءوا نهبها !.. نهب سفن القراصنة طريقة معروفة للثراء ، وقد كان أحكم القراصنة فى التاريخ هم الذين قرروا ممارسة القرصنة على سفن القراصنة العائدة محملة بالكنوز المنهوبة !

كانت (عبير) تراقب فى ذهول هذا المشهد ..

الضحية تستولى على أموال اللص .. هذا مشهد لا تراه إلا فى الأفلام الكوميدية ، لكنه يحدث فعلاً ..

ومن قال العكس ؟.. ما لا تعرفه (عبير) هو أن سفن (دا جاما) كانت تمارس القرصنة على نطاق واسع جداً ، وكانت فريستها المفضلة هى السفن العربية التجارية ..

لهذا كان ما يحدث الآن مجرد تدريب بسيط ...

* * *

عندما انتهى القتال قام رجال (دا جاما) بقذف سفينة القراصنة بالمشاعل وبراميل الخمر وهكذا تحولت السفينة إلى شعلة ملتهبة

ترتفع لعنان السماء .. كان من حظ هؤلاء القراصنة الأسود أنهم اختاروا سفينة فاسكو دا جاما للنهب .. والنتيجة أنهم قُتلوا ونُهبوا ..

ثم وقف (دا جاما) لاهثًا يلوح بسيفه المخضب بالدم ، وصاح فى رجاله اللاهثين المخضبين بالدم :

ـ « أحسنتم !.. المزيد من المجد للبرتغال ! »

كانوا محملين بالغنائم لهذا لم يستطيعوا التلويح بأسلحتهم والهتاف ..

قال لهم فى وقار :

ـ « لقد ظفر كل منكم بشىء ثمين ، وهذه مكافأتكم على جهودكم .. لكنى أبحث عن ذلك الشاب النحيل الهندى الذى أنقذ القبطان (دا جاما) العظيم من ذلك القرصان الهمجى .. »

من بين البحارة تقدم الفتى النحيل واسع العينين .. وانحنى أمام القبطان فى رهبة .. هل سيقطع رقبته عقابًا له لأنه تدخل ؟.. أشياء كهذه متوقعة جدًا مع (فاسكو دا جاما) فالفتى قد رأى الكثير ..

إنه (آرام) حبيب (راميشا) .. الذى لم يلحظ (دا جاما) وجوده حتى هذه اللحظة طبعًا ..

ـ « أنت فتى شجاع برغم الدماء الهمجية التى تجرى فى عروقك .. لست برتغاليًا لكنك سوف تكون ذراعى اليمنى .. »

ثم صاح بالأمر الذى يعرف أن البحارة ينتظرونه فى شغف :

ـ « سيصرف لكل منكم مقدار إضافى من الروم هذه الليلة ! »

هنا فقط تعالى الصياح والتهليل ، بينما راحت (عبير) تدون الأحداث بسرعة حتى لا تنساها ..

رأته يضع ذراعه على كتف الفتى وينتحى به جانبًا ، ثم يميل ليهمس فى أذنه :

ـ « أنت هندى .. فهل بوسعك أن تقودنا من هنا إلى الهند ؟ »

* * *

5ـ انتظار فى ماليندى ..

لكل شخصية بشرية مفتاح خاص بهـا ، وقـد كـان مفتـاح (فاسكو دا جاما) هو الطموح ..

الطموح هو الذى حرك كل خيط من خيوط حياته ، وهـو الـذى يفسر الكثير من أفعاله. لقد قام بحملتـه ودار حول رأس الرجـاء الصالح ووصـل إلـى مومباسـا ومـاليندي ، ومـا زال كثـيرون يعتبرونه من اكتشف رأس الرجاء الصالح ، لكنه كان يعرف جيدًا أن هذا لن يغير من الحقيقة شيئًا :

ـ « مكتشف رأس الرجاء الصالح هو (بارثلميو دياز) .. »

تسأله عبير :

ـ « وماذا وجدت أنت يا كابو ؟ »

ـ « لاشىء !.. »

يقولها ويقذف زجاجة الخمر لتضرب الجدار وتتهشم ..

ـ « لا شىء ! »

يقولها وهو يغرس السكين فى خشب المنضدة حتى المقبض ..

ـ « لا شىء ! »

يقولها وهو يجلد اثنين من البحارة وجدهما نائمين في قارب النجاة ..

ـ « يوم يكتبون سيرتى سيقولون إنه بحار جيد مشى فى الممرات البحرية التى اكتشفها (بارثلميو دياز) العظيم قبله .. هذا مضحك !! »

كان هذا يثير جنونه وغيظه ..

هو مصاب بعقدة الرجل العادى .. يريد كل شىء فى العالم غير أن يكون عاديًّا .. مجرد ضابط يؤدى ما يُطلب منه وينال رضا الملك .. كلا .. إن لفاسكو دا جاما شأنًا أعظم من هذا ..

* * *

المشكلة هى أن البرتغاليين لا يعرفون ما يكفى عن هذه المياه ..

الخرائط عتيقة ومن عهد (بطليموس) والإبحار اعتمادًا عليها انتحار لا شك فيه .. هناك مجانين جربوا حظهم وأبحروا نحو الهند ، وهؤلاء لم يسمع عنهم أحد ثانية ..

قالها لـ (عبير) بصراحة ذات ليلة فى قمرته ، ثم ضرب الطاولة بقبضته ، وقال :

ـ « هذا الكلام ليس للنشر .. »

ـ « لكن يا كابو .. »

ثم توقفت عن الكلام .. الحقيقة أنه كان يفرط فى احتساء الخمر ، لهذا كان يكلم نفسه كثيرًا جدًا وصارت تعرف كل شىء عن هواجسه .. سوف تعود لزمنها وجريدتها ثم تنشر هذا كله ، ولو أغضبه ما ستكتبه عنه بعد خمسمائة عام فعليه أن يجدها ليرفع قضية أو لينتقم !

لقد حاول أن يحصل على معلومات من ذلك الفتى الهندي ، لكن الفتى كان واضحًا منذ اللحظة الأولى : هو لا يعرف أى شىء عن البحر .. كونه يجيد القتال لا يعنى أنه خبير فى الملاحة ..

قال الفتى بلغته البرتغالية الرديئة جدًا :

ـ « كابو .. يمكنك أن تعرف الكثير من التجار العرب ، فهم ملمون بهذه المياه.. »

اشتعلت النار فى عينى (فاسكو دا جاما) وقال بعصبية :

ـ « كله إلا هذا !.. أنا لا أثق بهؤلاء القوم ولا أعتقد أن عندهم ما يقدمونه ..»

والفتى كان يفكر فى أشياء أخرى ..

عرفت ذلك عندما كانت واقفة على سطح السفينة تراقب الرجال وهم يعملون. كانوا ينظرون لها نظرات عابرة فضولية ، لكنهم لم يجسروا على مضايقتها ولو بأفكارهم لأنها تحت حماية (دا جاما) .. هكذا لم يجسر واحد منهم على أن يحتفظ بصورتها لأحلامه لأن هذا معناه خراب بيته .. سوف يحلم بها وسوف يعرف القبطان بطريقة ما ، ولسوف يجد نفسه معلقًا على إحدى الصوارى ..

(دا جاما) قبطان من الطراز الذى يبعث التوتر والقلق وعدم الراحة فى نفوس من يعملون لديه ، ولعلها لم تلق شخصية كهذه إلا مع القبطان (أهاب) بطل قصة (موبى ديك) .. والغريب أنه يغتذى من هذا التوتر كمصاصى الدماء ..

كان الفتى يقف بقربها وهو يربط حبلاً غليظًا .. كل هؤلاء البحارة يربطون حبالاً طيلة اليوم ..

قال لها بصوت خافت متظاهرًا بأنه لا يكلمها :

ـ « امرأة على السفينة .. هل أنت أسيرته ؟ »

نظرت له فى عدم فهم ، فقال من جديد :

ـ « هل أنت أسيرة القبطان ؟.. جارية لديه ؟ »

قالت فى ضيق شأن من يتدخل فى أمورها من لا حق له :

ـ « أنا صحفية .. مهمتى أن أكتب عن رحلته بالتفصيل .. »

ـ « لا أعرف معنى (صحفيـة) هذه .. يبدو أن هذه اللفظة معناها (أسيرة) أو (جاريـة) أو (فريسـة) ، لأننـى منذ رأيتك شعرت بأننى أرى يمامة فى عش صقر .. »

ـ « اطمئن .. أنا يمامة تعيش بكـامل إرادتهـا هنـا ، وقبطـانك هذا أكثر طموحـًا من أن يهتم بـامرأة .. صدقنـى إن لـى خـبرة بـالأمر .. الرجـال شـديدو الطمـوح لا يبـالون بالجمـال الأنثـوي ، وعندما يتزوجون تكون زوجاتهم قبيحات أو على الأقل مفتقـرات للفتنة الأنثوية .. لا وقت عندهم لهذه الأمور. قبطانك يحمل رأسًا مفعمًا بالفلفل والبهارات والخرائط البحرية .. »

ضحك كثيرًا مما قالت ، وأحكم ربط الحبـل حتـى بـدأ يلهـث ثـم أضاف :

ـ « من الغريب أنهم يهتمون بهذه الأمور .. عندنـا فـى الهنـد لا ثمن للتوابل على الإطلاق .. لهذا نتركها لهم بأرخص الأسـعار عندما يأتون لنا .. »

« وهم يبيعونها أغلى من الذهب .. »

ـ « فقط لو عادوا إلى البرتغال أحياء .. إن طريق الحرير ليس حريريًا على الإطلاق ، وهناك عصابات كثيرة من قطاع الطرق تفتك بالقوافل .. لا ينجح فى عبور الطريق سوى واحد من كل خمسة .. »

ثم قال وهو يبتعد ليقوم بمهمة أخرى تتعلق بالحبال بالتأكيد :

ـ « فقط خذى الحذر منه .. لقد عرفته بما يكفى كى أقول ذلك .. هذا الرجل يجمع بين غدر العقارب وشراسة النمور .. لو كانت حياتك تساوى جرامًا من الفلفل لقتلك حالاً .. »

صاحت كى يسمعها :

ـ « لكنك دافعت عنه .. لو لم تكن موجودًا لكانت جثته الآن وليمة للأسماك .. »

ـ « لأننى نشأت على احترام قبطانى وحمايته ، لكننى لا أنصح فتاة رقيقة بأن تفعل ما أفعله .. »

كان يبتعد وهو يتكلم حتى إنها سمعت آخر مقطع فلم تتبينه بالضبط ، لكنها قدرت أن هذا هو المعنى ..

* * *

هذه هى (ماليندى Malindi) المدينة الكينية ..

واحدة مـن المـدن الأفريقيـة القليلـة المطلـة علـى المحيـط الهندى ، مثلها مثل (مومباسا) و(موزامبيق) ..

لسبب ما يهوى السياح الإيطـاليون (مـاليندى) اليوم ، ولكن الأمور لم تكن كذلك فى القرن الخامس عشر ..

هذه هى المدينـة التـى توقفت سفينة (دا جامـا) عندهـا .. وهناك قضى عدة أيام ينتظر الفرج ..

كان قد وقع فى مشاكل عديدة مـع سلطات (مومباسـا) وفر منها فرارًا ، لهذا سره أن علاقات سلطات (ماليندى) سيئة مع سلطات (مومباسا) .. هذا جعله ضيفًا شبه مرحب به من منطق (أعداء أعدائنا هم أصدقاؤنا) ..

خطوة واحدة تصل به إلى الهند ، وخطوة واحدة تهوى به إلى أعمـاق المحيط الهندى .. سوف يرثيـه النـاس بضعة أيام ثـم ينسون اسمه تمامًا ، ولـم يكن (دا جامـا) العملـى نـافد الصبر ممن تروق لهم قصص الشـهداء وضحايا الواجب .. كـان يريد المجد والثروة فى حياته فإذا مات فلينسوا اسمه إذا أرادوا ..

قال لها فى واحدة من تلك المرات التى يتحرر فيها لسانه :

ـ « يجب أن أجد من يرشدنى إلى الهند .. يجب ... »

ولم يعرف كم هو محظوظ ...

فى ذلك اليـوم جاء قـارب صغير يدنو من السفينة ، وصـاح نوتى أفريقى مناديًا :

ـ « هناك تجار مسلمون يرغبون فى الصعود لتحيـة القبطـان (فاسكو دا جاما) العظيم ! »

* * *

6ـ بحار عربى ..

انتقل الخبر إلى القبطان (دا جاما) فاهتز كتفاه ضحكًا ، ثم قال لـ (عبير) :

ـ « أنا لا أطيق هؤلاء القوم .. إن مهمتى هى قص ريشهم وتقليل نفوذهم فى بحر العرب .. إنهم تحت كل حجر وفى كل جزيرة .. والآن يريدون تحيتى !.. تبًّا لألعاب الدبلوماسية هذه !.. »

ثم صاح فى البحار الضخم الذى جاء يبلغه الخبر :

ـ « قل لهم إنه لا وقت لدى القبطان (دا جاما) لهذه السخافات .. »

قالت (عبير) كاتمة غيظها :

ـ « لكن هذه (قلة ذوق) لا شك فيها .. هم يريدون تحيتك لا أكثر .. اعتبروك ضيفًا .. »

ـ « ومنذ متى تعتبر هذه أرضهم حتى يعتبرونى ضيفًا ؟.. »

مدت يدها إلى خارطة عتيقة موضوعة على مكتبه .. الخارطة تبدو كرسم فى كراس تلميذ بما فيها من خطوط سانجة وتعاريج لا وجود لها . ضمن المعلومات الجغرافية ترى صور شياطين وتنين وملائكة مجنحة .. خارطة فيها من الزخرفة أضعاف ما فيها من دقة ..

قالت له :

- « ذلك الفتى الهندى قال إنهم يعرفون هذه المياه .. »

صاح (دا جاما) فى غيظ :

- « هؤلاء القوم لا يعرفون سوى الصحراء والرمال ، وقد جففت الشمس أرواحهم وعقولهم .. لا أتصور أن عربيًا يعرف أى شىء عن البحر .. هذه خرافة .. هم فقط يبحرون فى الماء .. يبحرون فإذا قابلوا أرضًا نزلوا عليها وإن لم يقابلوا ماتوا ولم يعد أحد يذكرهم .. هذا كل شىء .. »

ثم راح يداعب لحيته الكثة بعض الوقت مفكرًا .. بسمة وحشية بدأت ترتسم على ملامحه ، ثم قال :

- « ولكن .. لِمَ لا ؟.. الإبحار ممل والحياة كئيبة .. بعض المزاح لن يؤذى أحدًا .. فلنر ما سيقولون ولسوف نضحك كثيرًا .. »

ثم نظر إلى البحار الضخم الذى جاء يبلغه ، فاستحالت ابتسامته شرًا وتطاير الشرر من عينيه وزأر كأسد :

- « أما زلت هنا يا أحمق ؟ .. لماذا لم تبلغ هؤلاء التجار أننى بانتظارهم ؟ »

* * *

يصل القارب إلى السفينة فى هدوء ...

ثم يصعد نحو ستة من التجار العرب بثيابهم المميزة ، وعلى ظهر السفينة يقف (دا جاما) وسط ضباطه وقد لبس أفخم ثيابه وأكثرها غطرسة .. النتيجة أنه بدا مرعبًا لا مهيبًا ..

يتقدم الرجال نحوه ومعهم مترجم ينقل عربيتهم إلى البرتغالية ، وبالطبع تفهم (عبير) اللغتين معًا ..

ـ « السلام عليك يا قبطان .. مما يشرفنا أن ترسو سفنك فى مياه هذا المرفأ المتواضع .. »

اقتادهم إلى قمرته وهو لا يكف عن غمز (عبير) أو ضربها بكوعه كلما قال أو قالوا شيئًا .. لسان حاله يقول : « سوف نتسلى قليلاً .. »

بدا التجار العرب منبهرين بهذه الفخامة التى رأوها فى قمرة القبطان .. هناك مخدع مغربى كامل وستائر هندية فاخرة .. هناك مجموعة كاملة من زجاجات الخمر المعتقة رفضوا أن يتذوقوها شاكرين وكئوس صنعها أبرع صناع الزجاج. هناك منضدة كبيرة مخصصة للاجتماعات ازدانت بالزخارف ، وهناك لوحة زيتية عملاقة للقبطان جوار صورة ملك البرتغال .. الشموع من طراز فاخر .. الورق من طراز فاخر .. حتى ريش الكتابة يبدو أنه ريش طاووس ..

فرد (دا جاما) خرائطه على المنضدة وثبتها بالفرجار ومسطرة معدنية ، ثم قال للتجار وهو يضرب الورق :

ـ « كما ترون .. الحسابات معقدة جداً وعملنا ليس سهلاً .. »

هنا قال أحد العرب فى الخمسين من عمره وهو يقرب عينيه قصيرتى النظر من الخرائط :

ـ « عمل متقن وجميل جداً .. هذه الأعمال الفنية لا تقدر بمال .. »

ـ « طبعًا .. لكننى أتكلم عن أهميتها للملاحة .. »

قال العربى وهو يتراجع :

ـ « لا أهمية لها .. هذه قطعة من الفن الخيالى الجميل ، لكن إحداثياتها خطأ وكل شىء فيها خطأ ! .. أنها قديمة جدًا ! »

نظر له (دا جاما) قليلاً ثم ابتلع ما يريد قوله ، واتجه إلى بعض الأدوات فالتقط (أسطرلاب) خشبيًا ورفعه فى فخر أمام العيون فى ضوء الشموع ، وقال :

ـ « أدوات ملاحة .. لن تفهموا هذه الأشياء طبعًا لكنها مهمة لنا .. »

تناول ذات العربى الأسطرلاب ووضعه فى كفه وتأمله للحظة ثم ألقى به على المنضدة ، وقال :

ـ « أسطرلاب .. لكنه شديد البدائية .. أنا صنعت (أسطرلاب) من النحاس يمكن أن أهدى واحدًا منه للقبطان .. لدى كذلك مزولة ممتازة صنعتها بنفسى !.. »

نظر له (دا جاما) بعينين يتطاير منهما اللهب .. لو كان الدخان الأسود يخرج من الرءوس كما فى الكاريكاتور لأحاطت سحابة سوداء برأسه .. وسأل :

ـ « فهمت أنك تاجر .. »

ـ « بل أنا بحار منذ الصغر .. »

ـ « وما اسمك أيها البحار منذ الصغر ؟ »

قال العربى فى صوت خفيض :

ـ « أنا العبد لله الفقير (أحمد بن ماجد) .. من جلفا(*) .. »

مد (دا جاما) يده الضخمة إلى كتف البحار العربى ضئيل الحجم ، واقتاده هو والمترجم بطريقة تحمل الكثير من اللهفة خارج القمرة ، ثم سأله بصوت خفيض :

ـ « هل تعرف الطريق من هنا إلى الهند ؟ »

قال البحار فى دهشة :

(*) فى رأس الخيمة حاليًا .

- « نعم .. طبعًا ... »

- « من هذا الساحل .. ساحل أفريقيا الشرقى .. هل تعرف كيف تقودنا إلى الهند ؟ »

كرر البحار فى دهشة :

- « بالتأكيد يا قبطان .. قلت لك .. »

عاد (دا جاما) إلى القمرة حيث كان التجار العرب والضباط و(عبير) يقفون مندهشين بانتظار عودته ، فرفع ذراع البحار العربى كأنه يعلن فوزه فى مباراة مصارعة ، وحتى كادت ذراع الأخير تنخلع ، وقال بصوت مجلجل :

- « سوف يكون (ابن ماجد) هو دليلنا إلى الهند ! »

تبادل البرتغاليون النظرات غير مصدقين ، وابتلعوا اعتراضاتهم .. بينما دنت (عبير) منه لتهمس فى حذر :

- « قلت إن العرب لا يفقهون شيئًا فى البحر .. »

- « وكنت مخطئًا ! .. هذا الرجل يعرف ما يريد وكيف يحصل عليه .. لن أبحر للهند بخارطة رسمت فى عصر بطليموس .. الرجل الذى يصنع (أسطرلاب) بهذه الدقة والبراعة يعرف بالتأكيد كيف يقودنا إلى الهند ! »

7ـ بحار عربى (عنوان مكرر لكن لا يوجد أنسب منه)

وداعًا (مالبندى) !

ها هى ذى العمارة تبحر باتجاه الشمال الشرقى نحو الهند ..

(عبير) تتابع الأحداث كعهدها ، وقد حاولت أن تلتقى بأكثر من بحار برتغالى لكن الشىء ذاته كان يحدث فى كل مرة .. تضع جهاز الكاسيت قرب فمه وتسأله عن رأيه فى الرحلة ، فيسألها فى رعب :

ـ « هل القبطان سيسمع هذا الكلام ؟ »

ـ « لا أضمن ألا يفعل .. أكلمك بصراحة .. »

هنا يتراجع فى ذعر ويلقى بهذا الحبل أو يجذب هذا الخطاف أو يدير تلك العجلة ، وبعضهم كان يكتفى بالقول :

ـ « رحلة رائعة .. نحن سعداء لكوننا مع القبطان العظيم ..»

كان (دا جاما) صارمًا فعلاً ، وقد رأت أكثر من مرة عملية جلد قاسية لهذا البحار أو ذاك ، لأنه لم ينفذ أمرًا أو لأنه سرق بعض اللحم المقدد ..

على كل حال كان يمكنها فهم هذا .. الرجل الذى يقود هذه العمارة بمن عليها من رجال ورءوس أموال هائلة .. الرجل

الذى عليه أن يضيف قارات كاملة لمملكته ، لا يمكن أن يجد الوقت ليكون رقيقًا .. كان قد تعامل مع البحارة وحتى أسفل عينات منهم وعرف كيف ينتزع احترامهم ، وإن وجد أن انتزاع الاحترام عسير من دون أن تظفر ببعض الخوف معه ..

رجل واحد بدا واضحًا أن (دا جاما) معجب به ، وكان من حقه مقابلة القبطان فى أى وقت ، كما كان يجلس معه بالساعات فى قمرته يناقشان الرحلة ..

هذا الرجل هو (ابن ماجد) ، ولقد حاولت كثيرًا أن تجرى حديثًا معه ، لكنه كان مشغولاً دائمًا ..

كان البرتغاليون قد أطلقوا عليه اسم (ماليموكانا) وهذا أفضل نطق توصلوا إليه لعبارة (المعلم الفلكى) وبهذا الاسم عرف أثناء هذه الرحلة .. على أن المراجع البرتغالية الأخرى تصفه باسم الميرانتى أى (أمير البحار) ..

فى تلك الليلة رأته يقف مع القبطان والضباط على ظهر السفينة .. السماء مرصعة بالنجوم بذلك الشكل الخام المذهل ، حيث تدرك للمرة الأولى أن فى السماء من النجوم أكثر مما فيها من الظلام .. نجوم يمكنك أن تقرأ على ضوئها ، ولو مددت يدك لقطفت بعضها لتهديه لحبيبتك ..

كان (ابن ماجد) واقفًا يشرح للقبطان خارطة النجوم وكيفية الاهتداء بها .. كان يعرف موضع كل نجم وكيف تعرف اتجاهك عن طريقه ، وخيل للرجال أن هذا الرجل ليس بحاجة إلى بوصلة من أى نوع ..

قال (فاسكو دا جاما) فى رضا :

- « هذا علم جديد علينا بالكامل يا (ماليموكانا) .. يجب أن نكتب كل ما قلت كى لا ننساه .. »

كان قد شرح لهم أمس الرياح الموسمية وكيف يمكن استغلالها ، كما شرح لهم المد والجزر ودور القمر فيه .. الحق إن هؤلاء العرب كانوا يجيدون الملاحة فعلاً ..

قبل يومين عرض عليهم الحقة الملاحية التى ابتكرها ، و(حقة) هى الترجمة العربية للفظة بوصلة ، وكيف علق الإبرة الممغنطة على محور لتتحرك حركة حرة مع هياج البحر . .. هكذا تعرف السفن طريقها وسط أعتى العواصف ..

لو فكرنا جيدًا لوجدنا أن هذا منطقى .. هؤلاء قوم لم يعيشوا فى الصحراء بل على الخليج ، وقضوا أكثر حياتهم فى السفن .. (ابن ماجد) نفسه قضى فى البحر خمسين عامًا ، وورث علم أبيه الذى ورث بدوره علم جده .. فقط يميل الذهن الغربى إلى التنميط .. العربى يعنى الجفاف والصحراء ..

عندما انصرف البرتغاليون وقف (أحمد بن ماجد) لفترة طويلة ينظر إلى البحر المتراقص فى ضوء النجوم ، وبدا كأنه يرقص مع ذكرياته المنسية .. ثم رفع عينيه يتأكد من أن القلوع منتفخة حبلى بالريح الموسمية ..

كانت الفرصة سانحة فدنت منه وفتحت جهاز التسجيل :

ـ « قبطان (ابن ماجد) .. هل تسمح لى بإجراء حوار معك ؟ »

نظر لها بوجهه المنهك قوى السمات ، ولم يبد أنه فهم معنى إجراء حوار ، لكنه قال :

ـ « لو كنت تقصدين الكلام معى وسؤالى عن أشياء فأنا موافق .. »

ـ « هل لى أن أعرف من أنت ؟ »

* * *

لا يوجد الكثير مما يقال يا بنيتى ..

أنا (شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل ابن دويك بن يوسف بن حسن بن الحسين بن أبى معلق السعدى ابن أبى الركائب النجدى) ..

هنا قالت (عبير) باسمة :

- « كفى وإلا انتهى شريط التسجيل .. »

ولدت فى (جلفار) كما تعرفين عام 1421 بالتقويم الغربى وعام 840 الهجرى .. أنا من أسرة مولعة بالبحر ، وقد نشأت على هذا الفن منذ نعومة أظفارى .. أبى يطلقون عليه اسم (ربان البرين) ..

إن البحارة فى الخليج يذكرونني جيداً ، وحتى فى زمنك المعاصر سيظل بعضهم يهتف عندما تبدأ سفينته الإقلاع : (الفاتحة لابن ماجد) .. برغم أنهم لا يذكرون عنى أية تفاصيل ..

الحقيقة أننى أضفت الكثير لما تعلمته فى صغرى ، ودرست علم الفلك جيداً .. وقمت بتطوير الحقة المائية والأسطرلاب وآلات تقيس ارتفاع الشمس وارتفاع النجم القطبى .. ثم بدأت أكسب عيشى كمرشد ملاحى ..

لى مؤلفات عديدة فى عالم البحر ، ولسوف يحتفظ معهد الدراسات الشرقية فى (لينتجراد) بمخطوطة لى بالعربية أصف فيها سبل الملاحة عبر البحر الأحمر والمحيط الهندى . إنها مكتوبة بالشعر كلها كما هى العادة فى زمننا .. كل شىء ينظم شعراً لتسهيل حفظه ، وأمثال (دا جاما) يمكن أن يضحوا بذراعهم الأيمن كى يجدوا مثل هذه المخطوطة مترجمة ..

سألته (عبير) فى حذر :

ـ « ما رأيك فى معلومات البرتغاليين البحرية ؟ »

ابتسم ابتسامة أفصحت عما لم يقله .. وفضل أن يصمت ..

الحق أن تلك الأيام كانت ضربة قوية لكبرياء (فاسكو دا جاما)، لكنه كان عمليًا وكان يعرف أن يفيد من أى وضع مهما كان صعبًا ..

وقرب حاجز السفينة الأيمن يجلس الفتى الهندى (آرام) يغنى بصوت خفيض .. يغنى لليل والبحر والظلام ..

دنت منه (عبير) وأخرجت جهاز التسجيل لتسجل جزءًا مما يغنيه ، ثم سألته :

ـ « ماذا تقول ؟ »

قال باسمًا :

ـ « لا يمكن أن تترجمى الغناء .. إنه يصير سخيفًا .. غناء كل لغة لا معنى له إلا بها .. غالبًا أغنى لبلدتى .. لحبيبتى (راميشا) .. لأمى .. لهواء وطنى الذى بدأت أشمه من هنا .. »

ـ « هل تنوى البقاء هناك للأبد لدى وصولنا ؟ »

صمت قليلاً ، ثم قال :

- « هذه عودة ليست في وقتها الصحيح .. لم أعد ثريًا . لم أعد عظيمًا .. لم أعد رجلاً واسع الخبرة .. باختصار : لم أحقق شيئًا مما خرجت لتحقيقه ، وأعتقد أنني سأعود للبحر لا محالة مع القبطان .. إذن هي زيارة لوطني لا أكثر ... »

دوى صوت الغناء والتصفيق ، فاستدارت (عبير) لتجد أن البحارة أشعلوا بعض المشاعل ، وراحوا يرقصون وهم يصفقون ويهللون .. صنعوا دائرة توسطها أحدهم وراح يأتي بحركات خرقاء المفترض أنها رقص ..

كانوا ثملين تمامًا ، وكانت تعرف أن كل البحارة البرتغاليين في هذا الزمن على الأقل ثملون .. ما أقبح الغناء عندما يصدر من حناجر ثملة أفقدها السُكر كل قدرة على تشكيل النغمات ..

كانت تعرف ما سيحدث .. لابد من التحرش بالنساء أو الأجانب .. هذه هي القواعد .. لقد ألفوها فلن يضايقوها .. على الأقل لأنهم يعرفون أن غضبة (دا جاما) ستكون كاسحة .. لكن ما الذي يمنع من التسلية على الكهل العربي ؟

8ـ تحرش وتحدٍّ ..

هكذا بدأت الدائرة تتحرك ، ولم يدر (ابن ماجد) متى التأمت الدائرة من حوله ليجد أنه يقف فى وسطها بينما يحيط به البحارة بوجوههم الفظة وأنوفهم المحمرة .. كانوا يريدون منه أن يرقص معهم ..

تظاهر بأنه لم يلحظ وشق طريقه ليخرج من الدائرة لكنها التأمت من جديد ، وقال قائل منهم :

ـ « هلم أيها العربى .. ارقص ! »

ومد يده ليرغمه على احتساء الخمر ، لكن (ابن ماجد) أبعد الزجاجة فى ضيق ، وحاول أن يجد ثغرة أخرى .. لم يفهم كلامهم لكن الإيماءات تكفى ..

الآن تحول التحرش إلى عدوانية صريحة ، فالرجل يرفض الشرب معهم وهذه إهانة ما بعدها إهانة بالنسبة لهم ..

كانت (عبير) تراقب الموقف فى قلق ..

من العسير نوعًا أن تتخيل أن (ابن ماجد) الكهل الوقور سوف يمزق سترته كاشفًا عن عضلاته القوية ، ويطلق صرخة رفيعة من صرخات (بروس لى) ويقول :

« لقد أردتم القتال فأنا له .. تقدموا ! » ، ثم يمزقهم جميعًا ..

لو حدث هذا لاندهشت بعض الشىء ..

السباب ينطلق بالبرتغالية لحسن الحظ وهو لا يفهمها ، لكن من السهل أن تتصور بذاءة ما يقال عنك عندما ترى تعبيرات وجه من يتكلم ..

ظل ثابتًا وسطهم ينظر له دون أن تطرف عيناه ، ثم نظر لها من وسط الرجال ، وقال :

ـ « هلا قمت بالترجمة لى ؟.. »

قالت فى عصبية :

ـ « لا داعى لهذا .. سوف أبلغ (فاسكو دا جاما) بأنهم يضايقونك ، ولسوف تكون غضبته مريعة .. »

ـ « لا .. لا تفعلى .. »

كانت تفهم هذا الموقف .. هو ليس طفلاً ليشكو لبابا فاسكو دا جاما .. هناك مشاجرات كثيرة يمكن إنهاؤها بأن تطلب الشرطة ، لكن طرفى الشجار لا يرغب أحدهما فى أن يبدو كفتاة مذعورة تستغيث .. الأمر يتعلق بالكرامة والتحدى ، لذا لن يحسن تدخل (دا جاما) الأمور .. هذه مشكلته وسوف يحلها بنفسه .. لكن كيف ؟

دنت منه فى رهبة منتظرة ما سيقول ..

قال بصوت هادئ :

ـ « أنتم تحاولون السخرية منى لأننى مختلف ، وأنا قد أقبل هذه السخرية من بحارة يجيدون عملهم فقد عملت مع أعظم البحارة وأبرعهم فى حياتى ، وكان المتميزون منهم يحترمون من هم مختلف عنهم .. إننى أدعوكم لتحد بسيط .. لو نجح أحدكم فيه فلسوف أقبل السخرية والعار باقى الرحلة .. »

نظر إليه الرجال متسائلين ..

هذه من دلائل فهم الشخصيات التى يملكها كل من عرك الرجال كثيرًا .. هؤلاء القوم لا يرفضون التحدى أبدًا .. مهما بلغت شراستهم فالتحدى عرض لا يمكن رفضه ..

قال و(عبير) تترجم :

ـ « أريد حبلاً ... »

من مكان ما قذف أحدهم له بحبل غليظ ، فتلقفه وصنع أنشوطة صغيرة قذفها على وتد يبرز من خشب الأرضية وأحكم ربطه بعدة عقد متتالية ..

- « هذه العقدة يعرفها البحارة العرب ، ويستطيع أصغر صبى فيهم أن يفكها بلمسة واحدة .. الرجل الذى يستطيع أن يفكها دون أن يقطع الحبل جدير بلقب بحار حقًا .. »

هكذا نسى الرجال أنهم ثملون ونسوا أنهم عدوانيون ، واجتمعوا حول العقدة .. كل واحد منهم يحاول أن يثبت أنه قادر على فكها ..

عملية مرهقة طويلة .. العروق تبرز من الأعناق والعرق يسيل من الجباه ، لكن لا جدوى ..

كل واحد ينظر بحقد لـ (ابن ماجد) وفى النهاية ساد الصمت ..

تقدم (ابن ماجد) فى هدوء وبيد واحدة فك العقدة فعاد الحبل حرًا طليقًا .. وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة خافتة ..

تقدم منه بحار برتغالى كثيف شعر الرأس والحاجبين والشاربين واللحية ، حتى لم يبق فى وجهه سوى بياض العينين ، وقال وهو يترنح :

- « علمنى هذه العقدة .. »

هكذا بدأ (ابن ماجد) يشرح له كيف قام بها ، والتف الرجال يحاولون الفهم ..

ابتسمت (عبير) وهى ترى أن المواجهة المتوقعة قد تحولت إلى درس من دروس الكشافة .. الرجل عالج الموقف ببراعة ولا شك فى أنه ظفر باحترام هؤلاء الرجال ..

هنا سمعت السباب بالبرتغالية ..

بدا (فاسكو دا جاما) فى ضوء المشاعل مرعبًا غير حقيقى .. أكبر من الواقع ذاته ، وهو بكامل ثيابه ونظرة متوحشة نارية فى عينيه .. وقد وضع قبضتيه فى خصره .. ومن خلفه كان عدد من ضباطه وهم أقل منه حجمًا وهولاً لكنهم يشبهونه كثيرًا..

من خلفهم يمشى الفتى الهندى (آرام) متوترًا ..

كانت الرسالة واضحة .. لقد أسرع الهندى يوقظه من نومه ليخبره أن البحارة يعتدون على (ابن ماجد) .. (ابن ماجد) .. (ماليموكانا) الذى هو أثمن بالنسبة له من الذهب .. آسف .. أثمن من الفلفل ..

هكذا ارتدى ثيابه وغادر قمرته وجاء ليسوى الأمور ..

وقف الرجال غير مصدقين ، على حين زأر (فاسكو دا جاما) :

- « (خوزيه) و(ألفاريس) و(ماريو) .. أنتم من بدأ التحرش .. تقدموا ! »

بالفعل من بين الرجال تقدم ثلاثة البحارة الذين كانت لهم الذراع الأطول فى الشغب .. تقدموا برءوس مطأطئة وأقدام ثقيلة ..

ـ « ليتلق كل منهم عشرين جلدة .. الآن .. »

ترجمت (عبير) ما قيل لابن ماجد ، فهرع يبلغ القبطان إنه لا يريد ذلك .. لم يحدث شىء وقد عادت المياه لمجاريها .. مجرد سوء فهم بسيط ، لكن (دا جاما) هتف فى عصبية :

ـ « أنا لا أتلقى التعليمات منك .. هذه سفينتى أنا (فاسكو دا جاما) العظيم .. هؤلاء رجالى وعليهم أن يتلقوا العقاب الذى أحدده ! »

هكذا نزع الرجال ستراتهم ووقف كل منهم ووجهه لعمود خشبى يحتضنه بقوة ، بينما جلاد السفينة يعد سوطه المغموس بالزيت فى ضوء المشاعل..

سمعت (عبير) أحد البحارة من خلفها يقول لصاحبه وهما يراقبان المشهد الرهيب :

ـ « إنه ذلك الكلب الهندى .. لقد وشى بنا .. »

ـ « صبرًا !.. سوف ينام وحده فى لحظة ما وعندها ..! »

لا تعرف كيف التقطت أذنا (دا جاما) هذا الكلام ، ويبدو أن القادة يجب أن يكونوا حديدى السمع كذلك .. فالتفت إلى الرجال وصرخ بزئير كالأسد :

- « لا يجب أن أؤكد أن سلامة الفتى الهندى مسئوليتكم .. لو حدث له أى شىء حتى ولو غرق فى الماء أو مات من تلقاء ذاته فدمه على رأسكم ، وسوف أشنق ثلاثة رجال أختارهم عشوائيًا عقابًا لكم !! »

ثم استدار عائدًا لقمرته بينما بدأ صوت السياط يتعالى ...

* * *

9- ليلة عاصفة ..

العاصفة هى الصورة الأولية شديدة الوضوح لغضبة الطبيعة .. وعندما تغضب الطبيعة فهى لا تكظم غضبها ولا ترفق ..

أن تواجه عاصفة وأنت على ظهر سفينة بدائية من القرن الخامس عشر لهو كارثة ، ويبدو أن الطبيعة كذلك كانت فى ميعة الصبا فى ذلك الوقت لأن العواصف كانت أعنف بالتأكيد ..

السماء سوداء بالمعنى الحرفى للكلمة ، فقط تشقها ألسنة البرق من حين لآخر .. ثم يظهر جبل أسود قادم من بعيد .. يجب أن تصدق أنه قادم .. يجب أن تصدق أنه سيمر من تحتك وأنك ستعلو حتى تبلغ عنان السماء ثم تهوى فى حفرة سحيقة سوداء ، وعليك أن تظل حيًا وفى وضع رأسى ..

يمر الجبل ، لكن جبلاً آخر يلحق به قبل أن تلتقط أنفاسك ..

لقد طووا القلوع كلها وغيروا اتجاه السفينة ..

(عبير) فى القمرة خائفة لا تجرؤ على النظر إلى الخارج ، لكنها تطير كل ثلاث دقائق لتضرب الجدران الخشبية ..

تسمع صياح (ابن ماجد) بالخارج وهو يصدر تعليماته للبحارة .. لقد أجاد الكثير من البرتغالية وهم أجادوا الكثير من العربية ..

تراه بعين الخيال وقد ربط نفسه بالحبال كأنه (أوليس) عند جزيرة عرائس البحر ، فلو لم يفعل ذلك لغاب فى المحيط خلال ثوان ..

الحق أنه رجل شجاع وموح بالثقة .. والأهم أنه يعتبر نفسه مسئولاً بالكامل عن سلامة هؤلاء لأنه اقتادهم إلى هذه المياه .. فى لحظات كهذه يمكنك أن تفهم اللقب الذى أطلقه التاريخ عليه حتى اليوم : (أسد البحار) ..

تسمع الصراخ وترفع رأسها لتجد (فاسكو دا جاما) جالسًا فى هدوء يكتب فى دفتر السفينة على ضوء شمعة .. حتى محبرته لا تهتز .. كأنه ينتمى لعالم آخر شديد الهدوء .. قواعد الفيزياء لا تنطبق عليه ..

رفع رأسه فوجدها مكومة كقط مذعور جوار الجدار وهى تجاهد كى لا تفرغ معدتها ..

قال لها :

- « لا تقلقى .. هذا الرجل بارع .. إنه يملك من الكفاءة ما يفوق عشرة من هؤلاء الخنازير المتغطرسين الذين يعتبرون أنفسهم ذئاب البحر .. »

ثم أضاف فى استمتاع :

ـ « لم تبلغ أية سفينة برتغالية هـذه النقطـة من قبل .. كلها غرقت قبل هذا .. »

ـ « وهذه ستغرق الآن ..!! »

ـ « أنت غيـر ذات خبـرة بحرية لهـذا تعتبرين هذه الأنسام عاصفة .. لم أر فى حياتى عاصفة إلا وكانت أسوأ من هـذه وأعنف .. »

ـ « نحن مدللون سعيدو الحظ إذن .. »

قال وهو يداعب لحيته :

ـ « لم نر عُشر ما رآه (بارثلميو دياز) فى رحلته حول رأس الرجاء الصالح حتى إنه أطلق عليه (رأس العواصف) .. والجميل فى الأمر أن خرائطنا كانت كلها خطأ فعلاً .. أنا أعيد رسم الخارطة بشكل دقيق .. »

دوى الرعد من جديد فرفع رأسه ، وقال باسمًا :

ـ « المحيط الهندى غاضب لأننا موشكون على هزيمته .. هلم يا أحمق .. أرنا ما لديك .. هل هذا كل ما عندك ؟ »

وكأن المحيط سمع هذا التحدى فاستشاط غضبًا .. هكذا ارتفعت السفينة كأنها تتسلق جبلاً كاملاً ثم هوت مرة واحدة حتى أوشكت كل قطعة خشب فيها أن تنفصل ..

ـ « تبًا .. لقد لوثت بقعة من الحبر الخارطة !! »

* * *

لم تغرق السفينة ..

فى الصباح كانت العاصفة قد هدأت ، وكان الرجال مشغولين فى إصلاح ما أتلفته غضبة المحيط أمس ...

رائحة الرطوبة فى الجو ورائحة الخشب المبلل .. رائحة الإجهاد وذلك الصفاء الذى يلى العواصف ..

كان (ابن ماجد) مرهقًا محمر العينين من فرط ما قضى الليل فى التركيز والانفعال وتوجيه الأوامر ، لكنه كان كذلك يتشمم الهواء من حين لآخر ..

مشى إلى المقدمة ووقف متصلبًا بعض الوقت ..

راح ينظر إلى البوصلة الحقة التى صنعها ثم أخرج آلة السدس وأجرى بعض القياسات ، ثم استدار ليعلن الخبر :

ـ « نحن على سواحل الهند ..! »

10 ـ زامورين وتوابل وأشياء أخرى ..

وهكذا استغرقت الرحلة 22 يومًا وهى فترة مدهشة بمقاييس ذلك العصر ، عندما كان هناك الكثير من الزمن فى كل شىء ، بحيث تخصص بضعة أيام للسفر من القاهرة إلى الإسكندرية ، وتستغرق رحلة الحج عدة أشهر ..

للمرة الأولى تدخل السفن البرتغالية العملاقة المياه الهندية ..

وقد خرج (فاسكو دا جاما) إلى سطح السفينة ليرى المشهد المهيب .. يمكنه أن يشم رائحة التوابل من هنا .. وأثار دهشته أن السفن العربية الواقفة فى هذه المياه كثيرة جدًا. بالفعل كان الحل لدى العرب منذ زمن سحيق وكان عليه أن يضغط على كبريائه قليلاً ليعرف ..

كان يحلم ..

يحلم بأن تختفى هذه السفن ، وألا ترى هنا سوى الأعلام البرتغالية ..

البحارة يقفون بدورهم ينظرون لتلك الأرض المفعمة بالأسرار والكنوز .. أرض تختلط فيها ثمار المانجو بالبهارات بالنمور المتوحشة فى الأحراش ، برائحة البخور فى المعابد القديمة

بثعابين الكوبرا ورائحة الأمطار السنوية ، وعيون الحسناوات الممتلئة بالكحل وهن يغمرن أجسادهن فى مياه نهر الجانج تقربًا لشيفا أو كالى .. هذه هى الهند ..

لكنها ليست بالأرض البكر للأسف .. العرب فى كل ركن هنا ..

قال (أحمد بن ماجد) وهو يفرك عينيه :

ـ « أعتقد يا قبطان أنه يجب أن أنزل أولاً .. هؤلاء القوم لم يروا سفينة برتغالية فى حياتهم .. »

* * *

فى 20 مايو عام 1498 ، رست سفينة البرتغاليين على سواحل الهند ..

(كاليكوت) ..

وفى قارب توجه (أحمد بن ماجد) مع (عبير) وبعض الضباط البرتغاليين إلى اليابسة. أنه لينزل من قاربه فتحييه وجوه الهنود الباسمة ويعانقه البعض ، فهم يعرفونه جيدًا ..

توجه إلى مندوب الحاكم ، وطلب منه الإذن لهؤلاء البرتغاليين فى النزول إلى اليابسة. كان مندوب الحاكم يبكى تأثرًا لأنه اكتشف أن الموظف العجوز الذى يعمل معه هو أبوه وبدأ يغنى أغنية

حزينة . باختصار النشاطات اليومية للهنود التى تتضمن لقاء أفراد من الأسرة طال فراقهم ..

وكان الهنود يتكلمون العربية بطريقة (أنت فيه واهد نفر صديج) التى يعرفها كل من زار الخليج وسمعهم يتكلمون ... .

قال المندوب دامع العينين :

- « إن أصدقاء (ابن ماجد) هم أصدقاؤنا ، لكن عليك أن تطلب إذن الراجا شخصيًا .. »

خرج (ابن ماجد) ومن معه ليقابل (مانافيكرامان) حاكم (كاليكوت) فى قصره ..

البريطانيون يطلقون على حكام (كاليكوت) اسم (زامورين) ، وكان الحاكم يقيم فى قصر منيف بالمدينة .. هناك أفيال وعبيد وراقصات هنديات ..

بالطبع كان الحاكم يبكى لأنه اكتشف أن تلك الجارية التى تقدم الشراب هى أخته التى ضاعت منه فى طفولته ، وبدأ ينشد أغنية هندية حزينة ، هنا قيل له إن (ابن ماجد) يطلب لقاءه ..

قال الحاكم وهو يجفف دموعه :

- « إن أصدقاء (ابن ماجد) هم أصدقاؤنا ، لكن يجب أن أقابل قبطانك هذا .. »

فى هذه اللحظة هب أحد التجار العرب الواقفين قرب الراجا وصاح :

ـ « البرتغاليون !.. هل وصلوا هنا ؟.. هؤلاء السفلة ! .. هؤلاء القتلة ! »

ثم انحنى أمام الراجا وقال بصيغة التوسل :

ـ « لا تسمح لهم بالرسو يا مولاى .. سوف يحيلون هذا البلد الجميل نارًا ودمًا .. نحن نعرفهم فى كل مكان وهم ليسوا غريبين علينا .. »

قال (ابن ماجد) فى غيظ :

ـ « كونهم من بلد مختلف ولهم دين مختلف ولون بشرة مختلف لا يعنى إدانتهم .. ليس لك أن تفترض أن السفاح سفاح حتى يقوم ببعض الذبح أمامك .. »

ـ « نحن لن ننتظر هذا .. »

هكذا دارت المناقشة الحامية ، وفى الوقت ذاته اكتشف الراجا أن العجوز الذى يعنى بالخيول هو عمه فانفجر يلطم خديه صارخًا :

ـ « مهاندرامات مانهاب مهون مهان ن ن ن ! »

ودوت أغنية هندية راقصة تعبر عن فرحته ، بينما راح الرجل وعمه يلثمان أيدى بعضهما .. ومن مكان ما ظهر شرير يحمل لفافة تبغ سوداء ويكلم الكاميرا فى توحش وهو يرفع حاجب التوعد الأيمن :

- « راج كوبار مهاندرانات مومكين ها موشكل مهان ن ..»

كانت (عبير) تراقب هذا كله فى استمتاع ، فلم تلحظ أن (ابن ماجد) انصرف .. وبعد نصف ساعة عاد ومعه (فاسكو دا جاما) شخصيًا ..

ساد الصمت بينما القبطان البرتغالى الرهيب يمشى وسط الهنود المتشككين .. حتى الراقصات والعازفين كفوا عن الرقص والعزف ، وأطلق أحد نمور الراجا زئيرًا متشككًا ..

لكن القبطان مشى فى ثبات فاردًا ظهره .. هناك لوحة شهيرة جدًا تظهر هذا المشهد ، وفيها يبدو الراجا متشككًا يصغى لدا جاما الذى يشرح وجهة نظره فى كبرياء ..

أحد التجار العرب شتم دا جاما بصوت مسموع بالبرتغالية ، لكن هذا فضل تجاهل الإهانة ..

قال الراجا فى ثبات عن طريق (أحمد بن ماجد) الذى كان الآن يجيد البرتغالية فضلاً عن إجادته العربية والهندية :

ـ « لن نسمح لك بالتجارة هنا ما لم تترك بعض البضائع كضمان .. »

انحنى (دا جاما) موافقًا .. كان هذا أفضل مما توقعه ..

الحقيقة أن (ابن ماجد) أو (ماليموكانا) مفيد على البر مثله مثل البحر ، لأن الهنود يثقون فيه ولأن أبوابًا كثيرة تفتح عندما يكون موجودًا ..

قالت (عبير) لـ (دا جاما) أثناء المأدبة التى أقامها لهم الراجا :

ـ « هل قطعت كل هذه المسافة من أجل هذا النصر الصغير ؟ »

ملأ فمه بالتوابل التى كانت تغطى خروفًا مشويًّا .. لم يصدق أن كل هذا الثراء موجود فى مكان ما .. فلفل .. شطة .. كمون .. هيل (حبهان) .. كسبرة. .. زعفران ..

كادت النار تخرج من فمه وأذنيه فشرب جرعة كبيرة من الماء وقال :

ـ « هذه هى الخطوة الأولى .. أن تكون لك امتيازات تجارية ، ثم تعززى هذه الامتيازات بأسطول كامل .. لاحظى أن احتلال بريطانيا للهند بدأ بشركة الهند الشرقية .. »

ثم ملأ قبضته بالشطة ودسها فى فمه :

- « دعك من أن الطريق للهند صار شيئًا محفوظًا .. »

وصرخ لأن النار ملأت فمه من جديد ...

كان يجد صعوبة فى إقناع الضباط الذين معه أن يحترموا أنفسهم ويكفوا عن سرقة التوابل ودسها فى جيوبهم ..

فى هذه اللحظة اكتشف ثلاثة من الهنود الجالسين إنهم إخوة توائم فانفجروا باكين وتعانقوا :

- « رابدنرانات كابور مهان ن ن ! »

ودوت أغنية حزينة ، على حين ظهر الشرير يواجه الكاميرا ويقول أشياء شريرة جدًا وهو يرفع حاجب التوعد الأيمن ..

كان أحد التجار العرب الجالسين على بعد خطوات يرمق (دا جاما) فى كراهية ..

لاحظ (دا جاما) هذا فتناول كأسه ورفعه بطريقة ساخرة فى وجه العربى وابتسم بما معناه (فى صحتك) ..

ثم ابتلع ما فيه ..

* * *

11 ـ معضلة تاريخية ..

(راميشا) كذلك بكت فرحًا وهى ترى (آرام) يركض كالغزلان نحوها ..

كان يركض بين الأشجار ، ثم يركض فى الشوارع ويبعثر سلال الفاكهة ويصطدم بالمتسولين والحواة ويضرب بقدمه الشطة التى نثرت لتجف .. من الجميل أن ترى كيف أن هؤلاء الهنود يمكنهم الجرى بالسرعة البطيئة كما يحدث فى السينما .. والأجمل أن الغناء الهندى يخرج من مكان ما ..

(راميشا) كانت تنشر الغسيل فى فناء دارها المجاورة للمسجد ، عندما سمعت اسمها ..

كان يركض ويركض وبدا واضحًا أنه سيرتمى فى أحضانها لو التقيا ، لكنه استطاع فى آخر لحظة أن يضغط على فرملة روحه ويقف أمامها بالضبط .. لاحظ أن الهنود محافظون مثل العرب .. فقط هو يملك الحرية أن يقف صامتًا ويلهث ..

تلتقى العينان ...

يلهث ..

تتجمع الدموع فى عينيها ..

لقد نضج وبدا أكثر خبرة وقوة ، وصارت بشرته سمراء أكثر مع خشونة واضحة فى كفيه ، لكنه بالتأكيد لم يكون ثروة .. هذا واضح تمامًا ..

ـ « آرام .. أنت حى .. إذن جئت مع هؤلاء البرتغاليين .. »

ـ « آرام يفى بوعوده .. »

يحيط بهما الأطفال وتتصايح العجائز أن آرام قد عاد .. ومن مكان ما تأتى أمه راكضة باكية .. سخاء فى المشاعر لا حد له يمكن أن تتهم معه العرب بالبرود. إن السر فى الشطة التى ألهبت عواطف هؤلاء القوم .. كل شىء حار .. الجو والماء والعواطف والطعام ..

وبين قبلات أمه الدامعة المبتلة على خديه سألته :

ـ « هل جئت لتبقى ؟ »

لم يرد .. لكنها عرفت الإجابة ..

قال لها وهو يلثم كفيها :

ـ « سوف أرحل ثانية مع القبطان (دا جاما) .. إنه يحبنى ويدافع عنى .. لكننى عائد بالتأكيد .. »

وتنهمر الأمطار الموسمية ..

أمطار غزيرة من الطراز الحار الذى يمتزج بالعرق فى مزيج فريد. البرق يشق السماء ، بينا يغمر الماء المعابد القديمة والغابات والأفيال ..

الهند ..

* * *

و(أحمد بن ماجد) يودع القبطان (فاسكو دا جاما) :

ـ « وداعًا يا قبطان .. لقد أنهيت مهمتى وأنتم قادرون على العودة .. »

لم يكن القبطان قادرًا على التأثر ، لكنه صافح العربى بقوة وسأله :

ـ « عائد إلى (جلفار) ؟ »

ـ « بل إلى مكة .. لقد اقترب موسم الحج وعلى أن أنطلق من هنا الآن إذا أردت أن أصل فى وقت مناسب .. »

ثم إنه صافح البحارة وعانقهم .. لقد صاروا أصدقاء بالتأكيد بعد هذه الأيام الطويلة ..

رجل عربى فقير يحمل عصا على كتفه علقت فى نهايتها صرة هى كل متاعه فى الحياة .. رجل عربى فقير يبتعد .. سوف يعود

إلى البحر ، وسوف يخوض المزيد من الرحلات لكن المؤكد أنهما لن يلتقيا ثانية أبدًا إلا فى كتب التاريخ ..

(عبير) ترمق المشهد وتدمع عيناها .

هنا شعرت بأن هناك من يقف خلفها ويراقبها ..

استدارت فى عصبية فوجدت المرشد يقف ، وهو يعبث بقلمه الجاف كالعادة .. شكله غريب وسط هؤلاء البحارة ببذلته الحديثة السوداء ووقفته التى تحمل معنى الملل واللا مبالاة .. قالت :

ـ « هل مغامرة اليوم قصيرة لهذا الحد ؟ »

ـ « لا .. »

قالها فى لا مبالاة ثم أضاف وهو يدس يده فى جيبه :

ـ « ما زالت أحداث كثيرة تنتظرك ، لكنى أردت أن أصحح لك نقطة معينة .. »

ـ « تصحح ؟ »

ـ « بل أعرض نقطة معينة لتكون عندك القدرة على الحكم .. من الخطأ أن يسمع المرء كل الحقائق من جهة واحدة .. هناك مؤرخون كثيرون يرون أن هذه الرحلة لم تتم وأن (أحمد بن ماجد) لم يلق (فاسكو دا جاما) قط .. مرشد آخر قام بإرشاده إلى الهند .. »

- « وهل هذا صحيح ؟ »

- « لا أعرف .. هناك أدلة قوية على أن (أحمد بن ماجد) هو مرشد (دا جاما) ، لكن من ينفون ذلك يقولون إنه لم يرد أى ذكر لأحمد بن ماجد فى كتابات البرتغاليين المعاصرين .. »

- « ورأيك أنت ؟ »

- « سوف ينسب (دا جاما) الفضل كله لنفسه .. هو رجل متواضع صادق كما تعرفين عنه ، لذا سيدعى أنه من فعل كل شىء .. هذا يفسر لنا أن (أحمد بن ماجد) لا وجود له فى كتابات البرتغاليين الذين بالطبع لا يريدون أن ينسبوا أى فضل لعربي ، ويعتمدون على كلام قائدهم الذى هو فوق الشبهات. هناك فى كتبهم كلام عن الميرانتى أى (أمير البحار) .. لكن هذا بالطبع ليس دليلاً على ابن ماجد .. فى الوقت ذاته تعج الكتابات العربية بقصة (أحمد بن ماجد) .. الأهم أن هناك عربًا ينفون عن (ابن ماجد) إرشاد البرتغاليين لينفوا عنه تهمة أنه سهل التفافهم حول السواحل الإسلامية .. الأمر شديد التعقيد كما ترين وتتدخل فيه عوامل كثيرة : الدفاع عن ابن ماجد قد يدفعك لإنكار ما قام به ، بالضبط كما يدفعك الحماس للبرتغاليين للشىء ذاته ! »

قالت فى حماسة :

ـ « أنا ميالة لأن القصة وقعت بالضبط كما رأيتها .. »

ـ « وأنا مثلك فهذا أقرب للمنطق .. لم يكن بوسع سوى رجل عربى أن يقود (دا جاما) للهند ، وكان من الطبيعى أن يستعين بأبرع العرب .. أى يستعين بأحمد بن ماجد (ماليموكانا) أسد البحار .. قد نكون نحن متحمسين لعروبتنا أكثر من اللازم وقد يكون البرتغاليون أوغادًا أكثر من اللازم ، لكن أردت أن تعرفى ما يُقال بدقة .. هذا هو كل شىء .. »

ثم نظر لساعته ، وقال :

ـ « الآن تعودين مع (دا جاما) إلى البرتغال .. لقد بدأ مجده الحقيقى .. »

ـ « والهند ؟ »

ـ « سيترك هنا بعض البضاعة والتجار .. هذا هو (مسمار جحا) الذى سيسمح له بالتدخل للأبد .. »

ونظرت (عبير) إلى الميناء فرأت أن الرجال يحملون المؤن إلى السفينة ويعيدون إصلاح ما أحدثته الرحلة فيها ..

ستكون الرحلة شاقة لدى العودة إلى البرتغال ، لكن لن يضل أحد طريقه هذه المرة ..

* * *

12 ـ رجل عملى جدًّا ..

فى طريق العودة حدثت أشياء بسيطة تافهة مثل أن شقيق (دا جاما) قد مات .. طبعًا هذا كلام فارغ لا يمكن أن يعكر مزاج القبطان .. لكن (عبير) دونته فى مذكراتها على كل حال ..

من دون (ماليموكانا) نسى (دا جاما) القواعد التى تتحكم فى الرياح الموسمية ، وهذا كلفه الكثير .. هكذا اضطر لعبور المحيط الهندى فى 132 يومًا بدلاً من 22 يومًا مع (ابن ماجد) .

فارق مائة يوم يكون قاتلاً فى البحر ، وقد وصل إلى ماليندى من دون نصف طاقمه ، ويبدو أن السمك أحب مذاق اللحم البرتغالى ..

كان الأسقربوط Scurvy داء وبيلاً يقتل البحارة ، بعد ما يجعلهم ينزفون كل قطرة من دمهم وتتعفن أطرافهم ، ويتجعد شعرهم وتتورم لثاتهم بحيث لا يقدرون على أكل شىء .. طبعًا كان يمكن إنهاء هذا كله ببعض عصير الليمون أو البرتقال ، لكن ما زال أمام الطب الكثير ليتعلمه فى القرن الخامس عشر ..

على كل حال كانت هذه منغصات بسيطة بالنسبة للقبطان العظيم ..

إن الرجال يمكن تعويضهم ، لكن المجد لا يأتى مرتين ..

* * *

ولم يكن (آرام) الفتى الهندى ممن أصيبوا بالأسقربوط ..

كان يمارس عمله فى نشاط كالعادة ، لكن من دون حماسة كبيرة .. لقد جعلته رؤية الوطن والحبيبة يفقد الكثير من شجاعته .. دعك من أنه اكتشف أربعة إخوة له لم يكن يعرفهم ، وغرق الكل فى الدموع والأحضان مع أغنية هندية تناسب الموقف ، والكثير من الركض بالسرعة البطيئة و :

ـ « مهان نننننن رابندرانات آكيه مهانن .. آتشا .. »

يقولون إن أول من ينزع حذاءه بعد رحلة شاقة لا يقدر على استكمال السير ، وهذا صحيح .. لقد نزع الفتى حذاءه فى (كاليكوت) ونزع أثقال روحه ، ثم وجد أن عليه أن يستكمل رحلته الشاقة التى لا يعرف لها هدف ولا نهاية ..

لقد عاد للبحر كى لا يعود لليابسة ..

فقط ..

فى ذلك اليوم اجتازت السفينة جزر (الآزور) ، وكان منهمكًا فى تنظيف سطح السفينة من القشريات الملتصقة به ، عندما رفع رأسه فوجد عددًا من البحارة يحيطون به ..

(خوزيه) و (ألفاريس) و (ماريو) . .. يعرفهم جيدًا لأنهم من تلقى ضربات السوط فى تلك الليلة .. ليلة التحرش بابن ماجد ..

واصل التنظيف متظاهرًا بأنه لم يلحظهم ، لكن (خوزيه) وقف أمامه متصلبًا ..

لم يعد من الممكن التظاهر بالغباء .. توقف الفتى ورفع رأسه متسائلاً فقال البرتغالى الفظ :

ـ « أنت أيها الكلب الواشى .. لم ننسك برغم كل هذه الأشهر .. »

وقال آخر :

ـ « لقد وجدنا الهند وحان وقت تصفية الحساب .. »

وقال ثالث (يبدو أنه ألفاريس) :

ـ « ما زالت ضربات السوط تؤلم ظهرى ! »

قال الفتى وقد أدرك دقة موقفه :

ـ « لم أكن أنا من أمر بجلدكم .. »

قال (ماريو) وهو يحك شعر صدره الكثيف :

ـ « القبطان فعل ما يمليه واجبه ، لكن من يجب أن يُعاقب هو الكلب الواشى خاصة إذا كان من جنس منحط همجى .. »

ولمح البريق .. لا يحتاج لذكاء كى يعرف أنها سكين فى يد أحدهم .. سوف يكبله اثنان ويغرس الثالث مديته ثم تسقط جثته فى البحر فلا يعرف أحد أنه مات أصلاً .. هكذا القصة دائمًا ..

هنا جاءت النجدة بصورة مسرحية غير متوقعة .. لقد انفتح أحد الأبواب وظهر القبطان شخصيًا !.. القبطان (دا جاما) جاء فى وقت كهذا ليرى بعينه ما يدور !

* * *

ـ « لا يجب أن أؤكد أن سلامة الفتى الهندى مسئوليتكم .. لو حدث له أى شىء حتى ولو غرق فى الماء أو مات من تلقاء ذاته قدمه على رأسكم ، وسوف أشنق ثلاثة رجال أختارهم عشوائيًا عقابًا لكم !! »

* * *

نظر له الفتى ولسان حاله يقول :

ـ « هل ترى ؟.. ينوون قتلى ! »

لكن القبطان نظر للمشهد نظرة لا مبالية .. كأن الأمر لا يعنيه على الإطلاق ، ثم صاح فى أحد البحارة :

ـ « (ألفاريس) .. عندما تنتهون أحضر لى بعض الروم ! »

ثم أغلق الباب !!..

هكذا وصلت الرسالة . ما كان على الفتى أن يعود على نفس السفينة مع ذات الرجال .. لقد كان مهمًا لأنه هندى وقد قدر القبطان أن (ابن ماجد) وحده لن يكفى للتفاهم مع الهنود ، والآن لم تعد له أهمية بعد مغادرة الهند .. يمكن للبحارة أن يمرحوا قليلاً لو أرادوا !

هذا الرجل عملى جدًا .. من الطراز الذى لا يحتفظ بأعقاب سجائره التى دخنها .. ولا شك فى أن مصيرًا مماثلاً كان ينتظر (ابن ماجد) لو بقى معهم فى رحلة العودة ..

البحارة بالتأكيد خمنوا ذلك وإلا ما كانوا قد بدءوا الهجوم ..

نظر الفتى للمحيطين به .. لا توجد ثغرة سوى حاجز السفينة من خلفه ..

كانوا يقتربون ببطء لكن بثقة ..

هكذا لم يتردد .. أدار ظهره لهم وتسلق الحاجز وبوثبة واحدة كان بين الأمواج ..

فضل أن يموت غرقًا على أن يظفر به هؤلاء .. إن السمك أرحم من البحارة الثملين على كل حال ..

ولكنه لن يموت .. سوف يسبح طويلاً جداً إلـى أن يبلـغ جزر الآزور التى لم يبتعدوا عنها كثيرًا لحسن الحظ ..

هناك سوف يلقى بأعبائه مع أعضائه ويسـتريح لفترة طويلـة جدًا قبل أن يحاول العودة إلى (كاليكوت) ...

* * *

13ـ أمير البحار الهندية ..

أفسحوا الطريق يا رجال ..

فلتتنحوا جانبًا ، وليسرع العبيد بفرش السجاد الفارسى الثمين ..

فلينفخ فى البوق ولتنثر النسوة أوراق الورد ..

إن الفاتح العظيم قد عاد من رحلته مظفرًا ، منتفخًا كالطاووس ، يلبس أفخم حلة لديه .. حلة من الطراز الذى يناسب موضة العصر ويجعل المرء أقرب لجبل مقلوب .. كتفان عريضتان محليتان بالفراء وسراويل ملتصقة بالساقين النحيلتين كجوربين ..

فليهلل الصبية .. فلتطلق أسراب الحمائم ..

لقد عاد (فاسكو دا جاما) من الهند .. لم يحمل معه كنوزًا لكنه حمل ما هو أهم .. حمل معه الطريق إلى الهند ..

إنه العام 1499 و(عبير) تقف هناك مع حاشية الملك (مانويل الأول) ..

هو ذا المستكشف العظيم يتقدم ، والرجال يرددون بلا توقف :

ـ « كابو .. كابو .. »

للمرة الأولى يتقدم الملك شخصيًا لمصافحة قبطان يعمل لديه ، وهو يعانقه وينعم عليه بالألقاب :

ـ « أنت أهديت الهند كاملة للبرتغال .. لهذا نهديك إقطاعيات فى (ساينز) .. نهديك لقب (دوم) .. وهذا اللقب سوف يكون لقبك ولقب كل فرد فى أسرتك إلى يوم الدينونة .. »

قال (دا جاما) بوقار :

ـ « شكرًا يا مولاى .. إن جلالتكم تغمروننى بالكرم .. »

ـ « ليس هذا فحسب .. أنت إيرل (فيديخيرا) وأول كونت لا يحمل دمًا ملكيًا فى عروقه .. »

ثم جلس الملك على العرش وطلب من (دا جاما) أن يخبره بما حققه بالضبط !

كأنه ممثل عظيم يقف على المسرح وقف (دا جاما) .. متظاهرًا بالاحترام لكن الفخر يوشك أن يغلبه .. هذا رجل فخور لا خاشع ..

ـ « نحن (فاسكو دا جاما) خادم (مانويل الأول) ملك البرتغال قد درنا حول رأس الرجاء الصالح كما فعل سلفنا العظيم (بارثلميو دياز) ، ومنه إلى ماليندى .. فى هذا الوقت تمكننا من

تطوير أسطرلاب حديث وحُقـ .. أ .. وبوصلة ورسمنا خرائط دقيقة جدًا ، كما استطعنا أن نحدد سبل الملاحة بالمحيط الهندى عن طريق الاسترشاد بالنجوم .. ومن ثم انطلقنا نحو الهند حيث رسونا فى (كاليكوت) وعقدنا اتفاقيات تجارية مع الراجا (ماتافيكرامان) الذى يحمل كل ولاء وخضوع للملك العظيم .. »

هتف الملك فى حماسة :

ـ « رائع .. أمير البحار الهندية !.. سوف نطلق عليك لقب (أمير البحار الهندية) .. ! »

ابتسم (دا جاما) فى وقار وأضاف :

ـ « استطعنا كذلك يا مولاى أن نبرهن على أن ساحل أفريقيا الشرقى (كونترا كوستا) مهم جدًا لسفننا .. إن (موزامبيق) ستكون مفيدة جدًا كمستعمرة للتاج البرتغالى .. »

هللوا يا رجال ..

اليوم ليس يومًا عاديًا ..

إنه اليوم الذى صارت فيه البرتغال قوة كاسحة ..

بونابرت سيقول فيما بعد إن من يحكم مصر يحكم العالم ، لكن دعنا لا ننس أنه غزا مصر كى يقصر الطريق إلى الجوهرة الكبرى : الهند ..

* * *

بما أن هذه فانتازيا ، فإن لنا أن نفهم تلك الوثبة التى قفزتها عبر ثلاثة أعوام للأمام وهى تتابع حياة الأخ (فاسكو دا جاما) وصعوده المستمر ..

العام 1502 ..

إن الميناء يستعد لاستقبال (بدرو الفاريس كابرال) المستكشف البرتغالى الآخر العائد من الهند .. إنهم يتشابهون حتى على مستوى الملامح وضخامة الجثة والقسوة ..

ينزل الرجل إلى الميناء ضخمًا مرعبًا ، فيقدمون له أكثر من (شوب) مفعم بالخمر ، يفرغ كل منها فى جوفه حتى يبلل لحيته وصدر سترته ..

ثم يلاقى (دا جاما) فيتعانق الجبلان ..

سأله (دا جاما) :

ـ « ما أخبار الهند ؟.. »

ـ « سيئة .. تمرد فى كاليكوت وقد أعدم بعض الثوار التجار البرتغاليين الذين تركتهم .. »

كان (دا جاما) يتوقع هذا بل يتوق إليه .. هذه هى اللحظة المختارة للتدخل (لحماية الرعايا البرتغاليين) كما تفعل كل الدول الاستعمارية ..

لكنه أظهر الذهول والغضب .. وانطلق لا يلوى على شىء لمقابلة الملك ..

راحت (عبير) تركض وراءه متلاحقة الأنفاس ، وهى تسأله وهو يرد باقتضاب دون أن ينظر لها :

ـ « ماذا تنوى عمله ؟ »

ـ « يا له من سؤال ! .. سألقنهم درسًا طبعًا .. »

ـ « لكن (كابرال) يقول إنه قصف سواحلهم .. »

ـ « هذا ليس كافيًا .. أنا أعرف مصدر هذا التمرد .. »

ثم توقف عن المشى الحثيث واستدار ليواجهها وعيناه تشعان نارًا :

ـ « المسلمون !.. »

ـ « المسلمون ؟ »

ـ « منذ البداية هم يريدون أن يستأثروا بهذه البلاد ولا يطيقون فكرة وجودى فيها .. يمكننى أن أتخيل كيف ألبوا نفوس الهنود على .. وأول علامة للغضب عند الهندى هى القتل .. اكتبى هذا واكتبى أننى سأطلب أسطولاً من عشرين سفينة لاستعادة (كاليكوت) .. »

وابتعد تاركًا إياها تتوقع الأسوأ ..

* * *

كانت السفينة تمخر عباب المحيط عندما صاح النوتي :

ـ « سفينة عربية فى الأفق ! »

ابتسم (دا جاما) فى وحشية واتجه إلى المقدمة ليراقب السفينة القادمة .. بالفعل يشعر بغيظ لأنه لا يوجد تلسكوب ،

ومن الصعب تخيل قبطان سفينة يقف مستندًا على حاجزها ولا يمسك بتلسكوب ..

قال لضباطه وهو يتراجع :

ـ « استعدوا للالتحام .. هذه السفينة لنا ! »

سألته (عبير) فى توتر وهى تركض كالعادة لملاحقته :

ـ « من قال إنها سفينة مقاتلة ؟ .. أنت قلت إنك تنوى الذهاب لتأديب (كاليكوت) ولم تتحدث عن القـ ... »

ثم توقفت لأنها خشيت أن تكمل كلمة (قرصنة) هذه ..

لكن الرجل لم يتكلم .. دخل فى طور سماع أفكاره الخاصة والكلام مع ذلك الشيطان القابع فى رأسه يدلى بالتعليمات .. فقط لا ترى منه إلا عينين زائغتين ذاهلتين ..

وعندما تم الالتحام وعندما وثب البرتغاليون كالشياطين إلى ظهر السفينة العربية ، عندها فقط استطاعت (عبير) أن تسمع صرخات الأطفال والنساء ..

هذه ليست سفينة مقاتلـة .. فى الواقـع ليست مقاتلـة علــى الإطلاق ..

هذه سفينة عائدة من مكة وعليها نحو 400 من الحجاج . ..

لقد بدأ عصر الرعب البرتغالى ..

* * *

14- مذابح ..

عبير كانت تصرخ وتقاوم وتشتم وتلعن ..

وفى النهاية أمسكت بتلابيب القبطان .. بعباءته الفاخرة المحلاة بالفراء، فصفعها بقوة لتطير وتضرب الجدار الخشبى خلفها، ثم أمر رجاله أن يسجنوها فى قاع السفينة فلا تأكل سوى الخبز والماء لعدة أيام لعلها تهدأ ..

لم يكن يستطيع التخلص منها لأنها تتبع إدارة فانتازيا وهناك توصيات كبيرة على سلامتها .. فقط يمكنه أن يعاقبها بعض الوقت، ويستريح من صراخها الهستيرى ..

الحقيقة أن النار كانت تتعالى حتى تبلغ عنان السماء ..

ما قام به (فاسكو دا جاما) هو عمل فريد فى قسوته والتاريخ يذكره بكثير من الدهشة والاشمئزاز، والأهم أنه لاضرورة له على الإطلاق سوى (الصدمة والترويع) على الطريقة الأمريكية المعاصرة .. كان يريد أن يرتجف المسلمون متى سمعوا اسم (البرتغال) أو اسم (فاسكو دا جاما) ..

هكذا قام بحبس راكبى السفينة العربية فى القاع ثم أحرق السفينة .. تطايرت المشاعل فوق الخشب المبلل بالنبيذ فى سيناريو عرفناه مسبقًا .. لكن الضحايا هذه المرة لم يكونوا قراصنة.

هذه العملية استغرقت نحو أربعة أيام .. لا يوجد ناجون من الأربعمائة مدنى الذين كانوا عائدين من الحج ..

الحق أن الدخان ورائحة اللحم المحترق والصراخ كانت قوية جدًا حتى إنه كان مشتاقًا إلى لحظة الرحيل ، لكنه ظل يراقب المشهد شاعرًا بأنه فنان أنجز عملاً مهمًا وهو ذلك الشعور الذى يغمر كل سفاح انتهى من حرق أبرياء ..

فى النهاية وقد استحال سطح المحيط إلى بقعة من النار والدخان والخشب المتفحم أصدر أمره بأن تتحرك السفينة إلى وجهتها الأصلية :

- « إلى (كاليكوت) !! »

* * *

كانت (عبير) فى قاع السفينة تمرح مع الفئران .. الفئران التى لم تبد لها سيئة جدًا ..

طوق معدنى فى كاحلها يثبتها إلى الجدار وكومة قش تنام عليها .. لكنها لم تشعر بأية معاناة لأن سجنها كان مزيجًا من فقدان الرشد والإفاقة .. مائة مرة رأت فيها القبطان يقتنع بمنطقها ويعفو عن السفينة فترحل .. ثم تفيق لتدرك أن كل شىء حدث فعلاً ..

كان هناك أطفال .. أطفال ..

الفكرة توشك على أن تذهب بعقلها .. هكذا تفقد وعيها من جديد ، وفى غيبوبتها ترى (دا جاما) يعفو عن العرب ويسمح لهم بالرحيل ، فتلوم الكابوس الذى جعلها تراه يحرقهم أحياء ..

ثم تفيق لتدرك أن ..

إنه الجنون ..

لا يوجد تفسير آخر ..

أما الرجال فقد استخف بهم المرح .. إن اللحظة التى تفصل بين البحار العادى والقرصان غير واضحة ، والخط الفاصل بين الاثنين يمكن عبوره دون أن تشعر .. هكذا صاروا جميعًا قراصنة متعطشين للدم ، خاصة إن تم هذا من أجل التاج البرتغالى ..

كانت سجينة فى القاع ، فلم تعرف أن (دا جاما) هاجم مجموعة كاملة من الموانى التى يسيطر عليها العرب .. يبدو أنه كان يمارس حملة تطهير لكل موضع إسلامى على ساحل أفريقيا الشرقى ..

ثم إنه هاجم كل سفينة عربية واستولى عليها وسلبها البضاعة التى تحملها ..

أخيرًا يصل الأسطول البرتغالى الرهيب إلى سواحل الهند ...

* * *

عندمـا دخلت سفن (فاسكو دا جامـا) إلـى الميـنـاء الهـادئ (كاليكوت) لم تكن فى هذه المرة مراسم لكسب الثقة ولا قوارب تدنو للتعارف ..

لقد رأى الهنود سفنه قادمة فأدركوا أن الخطر قادم .. السفن ذاتها بدت كأنها تكشـر عن أنيابهـا أو توشك علـى الافتراس .. سفن حية متعطشة للدماء ..

قبل أن يتصايحوا منذرين بعضهم هوت أول قذيفـة مـن مدافـع (دا جاما) على سفينة راسية فى الميناء ، فاشـتعلت النـار بهـا ، وراح بحارتها يقفزون إلى الماء صارخين ..

مدافع عتيقة جداً تصلح للوضع فى أى متحف ، لكنها بالنسبة لذلك العصر شديدة الحداثة .. دعك من أنها تقتل مثل أى مدفع آخر ..

وانطلقت قذيفة أخرى لتهوى هذه المرة فوق بناية مـن خشـب على الميناء .. طبعًا تحولت إلى فحم على الفور ..

عشرون سفينة برتغالية تطلق قذائفها بلا توقف ..

والمدينة الجميلة بقبابها ومعابدها ومساجدها ورياضها تحولت إلى جذوة من النار والدخان .. نساء يركضن صارخات وأطفال يتعثرون ويبكون ورجال ينزفون ..

و(فاسكو دا جاما) القبطان العظيم يقف على ظهر سفينته يرقب هذا كله بوجه قُد من صخر ..

فقط صاح فى رجاله :

ـ « صبوا عليهم كل شىء !! »

ودوت الانفجارات من جديد ..

لشد ما اختلف دخول (دا جاما) فى المرة الثانية . لقد كان فى المرة الأولى ضيفًا يتمنى أن يسمح له بالدخول .. اليوم هو سيد جاء ليعاقب ..

عندما تنقشع سحابة الدخان والموت من فوق (كاليكوت) سوف ينزل رجاله ..

* * *

15ـ مذابح مذابح مذابح ..

الآن بدأ نزول الرجال ..

وكما قال (دا جاما) فإن السلب والنهب نوع من حفلات الترفيه التى يجب أن تتاح من وقت لآخر للبحارة المتوترين المتعبين .. لهذا سمح لهم بعمل أى شىء ..

وفى شوارع (كاليكوت) المحترقة المهدمة راح البرتغاليون الثملون يركضون متصايحين ، ويعملون السيف فى كل من يقابلونه .. بالطبع لا يمكن أن تنجو منهم امرأة أو رجل مسن أو طفل ..

كل برتغالى تمنى لو كانت لديه سبع أذرع كى يحمل بها ما نهبه من مال وتحف ، وفى الوقت ذاته يحتفظ بذراعين من أجل القتال والخطف ..

لم تعد هناك شطة منثورة على الحصير لتجف .. لقد احترقت ..

لم تعد هناك رائحة مانجو ولا أزهار لوتس تطفو فوق البركة التى يشرب منها الطاووس .. البركة كلها تبخرت ..

ووسط هذا الخراب وبكامل ثيابه الأنيقة المهيبة التى يمكن تلخيصها بكلمة واحدة (الغطرسة) يتقدم (دا جاما) وسط ضباطه متجهًا إلى قصر الراجا ..

يخرج الراجا المذهول المرتجف وحوله رجاله ، ويمشى للقاء القبطان غير مصدق ما انتهت إليه مدينته الجميلة . ..

يسمع صراخ قومه من بعيد فيتخيل ما يحدث ..

من خلفه التاجر العربى الذى كان معه فى البداية ، يقول له :

ـ « قلت لك ألا تعقد معهم أية صفقة يا مولاى . .. قلت لك ألا تدعهم يرسون هنا .. القتلة السفلة ينثرون الموت والخراب أينما ذهبوا .. »

لا يرد الراجا ويقف أمام (دا جاما) فى ساحة القصر التى لم يصبها الخراب ..

شتانٌ ما بين المشهد منذ أعوام والمشهد اليوم .. كان (دا جاما) يرجو ، لذا كان مهذبًا محترمًا برغم كبريائه الشديدة ، أما اليوم فهو هنا ليأمر وقد تحرر كبرياؤه من أية قيود ..

يقول (دا جاما) عن طريق المترجم :

ـ « ها نحن أولاء نلتقى من جديد .. »

قال الراجا فى كبرياء :

- « ماذا تريد يا قبطـان ؟.. لا داعى للمقدمات .. يمكنك قطـع رأسى وتعليق جثتى على صاريتك لو أردت .. لكن لا ذنب لقومى فى هذا .. قل لرجالك أن يتوقفوا ولتظفر بتسليتك معى .. »

ضحك (دا جاما) طويلاً بتلك الطريقة المسرحية العصبية التى يجيدها الأوغاد .. طوح رأسه للخلف وفتح فمه عن آخره :

- « ها ها ها ها ها !.. أنت رجل شجاع لكن ليـس رأسـك مـا أريد .. »

وسقطت عينـاه الناريتـان علـى التـاجر العربـى الواقـف خلـف الراجا ، فابتسم فى توحش وقال لرجاله :

- « تعرفون ما يجب عمله .. خذوه ! »

(ما يجب عمله) يعنى قطع رأس الرجل وأطرافـه وإلقـاء كل شىء فى البحر ..

ثم قال (دا جاما) وهو يجفف عرقه بمنديل معطر ثمين :

- « لا أريد شيئًا منك يا راجا .. أريد طرد أى مسلم من هذه المدينة خلال ساعات قبل أن يأتى الليل .. هل هذا شرط عسير ؟ »

لم يرد الراجا فقال (دا جاما) :

ـ « أريد شروطًا جديدة للتجارة .. شروطًا مجحفة قاسية مهينة .. هل هذا مفهوم ؟ »

ـ « مفهوم .. »

ـ « سوف يستمر رجالى فى المرح إلى أن أرى آخر مسلم يغادر البلدة .. »

بالطبع لم يجد الراجا مفرًّا من هذا ، ولم ينته اليوم إلا وكان البحر يعج بجثث التجار المسلمين الذين قطع البرتغاليون رءوسهم وأيديهم وأرجلهم ..

* * *

فى هذا الوقت تقريبًا كانت (عبير) قد هشمت رأس الحارس البرتغالى الثمل ..

قالت له إنها خائفة من الفئران ، وإن هناك فأرًا فى ركن الزنزانة .. أنت رجل قوى شجاع ويمكنك أن تظفر به .. طبعًا دخل الأحمق وزحف على ركبتيه أمامها ليبحث عن ذلك الفأر ، هنا هوت على رأسه بإناء الماء المصنوع من فخار ثقيل ..

ضربة قوية جدًا وجهتها بكل خلية فى جسدها لأنها تعرف أنه لن تكون هناك فرصة لضربة أخرى ..

سقط على الأرض والفئران تتواثب حول رأسه الدامى ، فلم تنتظر حتى تدرك حجم إصابته وراحت تعبث فى نطاقه حتى وجدت المفتاح ..

المفتاح الذى دسته فى القيد الحديدى فى ساقها وسرعان ما تحررت ..

صحيح أن دمها متجمد وأن عضلة واحدة لا تطيعها ، لكنها استطاعت أن تقف وأن تزحف حتى الباب وتخرج منه . لم يكن هناك أحد بالخارج .. الكل منشغل بالنهب فى الخارج .. لا مبرر للبقاء فى السفينة وترك هذا السيرك الهندى الممتع ، لذا وجدت أنها تمشى وحدها فى ممرات خشبية رطبة مظلمة ..

الدرج الذى يقود لسطح السفينة .. يجب أن تكون حذرة ..

إن الليل قد جاء لكنه ليس ليلاً بالضبط ..

(كاليكوت) تحولت إلى شعلة برتقالية كبيرة تذكرها بحريق روما .. لا .. هى لم تر حريق روما لكنها تتخيله ...

زحام من السفن من حولها .. والمرفأ نفسه صار شعلة أخرى ..

(دا جاما) يؤدى دور (جنكيس خان) بكفاءة تامة ..

فى عالم الواقع لا تجيد (عبير) السباحة ، لكنها هنا استطاعت أن تنزلق على حبل الهلب حتى سطح الماء ، ثم تشق طريقها نحو اليابسة فى الظلام حريصة على أن تبتعد عن منطقة الأحداث .. يجب أن تكون بعيدة عن السفاحين ..

سوف تتوارى بضعة أيام فى أى مكان حتى تهدأ الأمور ، بعدها تبحث عن طريقة للعودة ..

إلى أين ؟

لا تعرف ..

إنها لم تأت من مكان ما لهذا لا تعرف إلى أين تعود لو أردت رأيى ..

فقط لا تشتتوا ذهنها وهى تشق طريقها للساحل وسط قطع الخشب المحترقة العائمة ، ولا تخبروها من فضلكم أن هذه الأشياء العائمة على الماء هى أطراف تجار عرب ، وإلا فقدت وعيها وغرقت ..

سوف تعرف هذا بنفسها عما قريب ..

* * *

16 ـ بعد المحرقة ..

حقًا لم تستطع قضاء كل هذا الوقت فى الغابة .. هذه أمور جديرة بالصبى (موجلى) الذى ربته الذئاب أو طرزان الذى ربته القردة ، لكنها لم تستطع تحمل يوم واحد فى مكان كهذا برغم أن المانجو متوافرة وهى تعشق المانجو بجنون . .. لكن مشكلة الأدغال الأزلية هى أن كل شىء يتحرك .. غصن الشجرة ثعبان ، وجذع الشجرة العفن الذى تجلس عليه تمساح ، وتلك الظلال الرقيقة بين الأوراق هى ببر ..

هكذا وجدت نفسها تركض نحو المدينة التى يتصاعد منها الدخان ، والتى بدأت رائحة الموت تخرج منها ..

لم يكن هناك أحد ليقابلها ..

بعبارة أدق لم يكن هناك أحد يمشى على قدميه .. هناك الكثير من الجثث وهناك من يجثون على ركبهم باكين جوار الجثث ..

المساجد الرائعة التى كانت آية فى الطراز الإسلامى عندما يستعرض عضلاته ويظهر لغير العرب كم هو جميل .. هذه المساجد صارت كالأرض حتى لم تعد متأكدًا من أنها وجدت أصلاً ..

(كاليكوت) قد صارت منطقة منكوبة بالمعنى الحرفى للكلمة ..

* * *

هناك كان صوت البكاء يمزق نياط القلب ..

تدنو أكثر ، ويخيل لها أنها تعرف هذا الصوت ..

هناك بيت مهدم وهناك حرائق فى كل صوب .. وبين الخرائب تناثرت الجثث الممزقة ، لكن هذا الذى يبكى تعرفه جيدًا .. أنه يلف لثامًا حول رأسه وقد نمت له لحية خفيفة ، لكنه هو .. هاتان العينان لا يمكن أن تخفيهما مهما حاولت ..

دنت أكثر ووقفت خلفه ..

كان راكعًا على الأرض وعلى ركبته رأس جثة فتاة .. واضح أنها كانت حسناء .. الشعر الأسود يغطى يديه تمامًا .. هناك دم فى كل صوب فلا تعرف هل هو من الجثة أم من جثث أخرى ..

كان يهزها ويردد كلامًا كثيرًا بالهندية أعتقد أنه نواح ..

هتفت بصوت متردد :

ـ « آرام ؟ »

استدار للخلف .. كان الدمع يغرق حدقتيه ويسيل من أنفه ، وقال وهو يشهق :

ـ « أنت هنا ؟ »

ـ « وأنت هنا ؟ »

ثم أردفت فى شىء من الحدة :

ـ « أنت كنت مع (دا جاما) .. كيف بقيت معه وهو يفعل هذا كله بأهلك ؟ »

ـ « لم أكن معه .. لقد هربت إلى جزر الآزور .. وعندما سمعت أنه قادم إلى (كاليكوت) كنت فى طريقى للعودة .. توقعت ما سيحدث وأردت أن أهرب بأهلى ورفاقى قبل أن يحدث المحظور .. لكنى تأخرت كثيرًا جدًا .. »

نظرت بعين الفضول إلى الجثة فقال :

ـ « اسمها (راميشا) .. كانت تحبنى ووعدت بأن تنتظرنى .. اسمها (راميشا) وقد جاءت للكون من أجلى ، لكن قبطانكم العظيم قرر أن هذا لا يناسبه .. »

ثم انفجر فى البكاء ..

لم تعد لديه أسرة .. لم يعد لديه بيت .. الأحلام التى جاب العالم من أجلها قد قضى عليها القبطان العظيم (دا جاما) وأسطوله ..

قالت (عبير) بصوت مبحوح :

ـ « ليس قبطانى .. قلت لك إننى مجرد صحفية أتابع الأحداث .. وقد فررت منه بالمناسبة قبل أن يتخلص منى بدورى .. »

نظر لها بعينين ناريتين قبل أن ينتثر شعره الناعم ليغطيهما فى حركة انفعالية هندية شهيرة ، وقال :

ـ « لكنك عربية .. أليس كذلك ..؟ »

ـ « بلى .. وهو ما يجعلنى مرشحة بشدة للتخلص منى فى هذه الظروف .. »

« كان ذلك الرجل مخطئًا .. (أحمد بن ماجد) ارتكب خطأ جسيمًا .. ما كان يجب أن يقود البرتغالى إلى الهند .. إلى وطنى .. إلى مدينتى .. إلى أمى .. إلى (راميشا) .. كم تقاضى من أجر مقابل هذا ؟ »

هذا هو أول من اتهم (ابن ماجد) فى التاريخ بهذه التهمة الشهيرة ..

قالت (عبير) محاولة أن تتكلم بكياسة وهدوء :

ـ « ابن ماجد لم يقتل هذه الفتاة .. »

ـ « أحيانًا يكون من الجرم أن تخبر النمر بمكان الخراف .. هذا هو ما فعله بحارك العربي ، والنتيجة هى أن قومك المسلمين أنفسهم قد طردوا من هنـا أو أبيدوا .. البرتغال صارت تسيطر على الهند وسوف تظل فيها .. »

قالت ضاغطة على كلماتها :

ـ « (ابن ماجد) لم يتصور أنه يعلم نمرًا .. »

ـ « التجار العرب كانوا يعرفون ذلك وقد أسدوا النصح فلم يصدقهم أحد .. اليوم هم دفعوا الثمن .. كلنا دفعنا الثمن .. »

وانفجر فى بكاء هستيرى ..

وسط الخرائب تمشى (عبير) والدخان يتصاعد من الأرض كأنها فى (ديسكوتيك) .. فقط هنا تُرقص رقصة الموت وتُعزف ألحان الخراب ..

من الغريب أن ترى مدى تقارب حروف اسمى (دا جاما) و(ابن ماجد) .. بحاران لكن السبل اختلفت بكل منهما ، ولعب أحدهما دور الملاك الساذج قليلاً بينما لعب الآخر دور الشيطان الذى صبر حتى نال ..

بحاران ..

لكن ما أكبر الاختلاف بينهما ..

أين (ابن ماجد) ؟

* * *

17ـ وداعًا دا جاما ..

« ينبغى إنك إن ركبت البحر أن تلزم الطهارة فإنك فى السفينة ضيف من ضيوف البارى عز وجل فلا تغفل عن ذكره ..»

أحمد بن ماجد

* * *

عاد (فاسكو دا جاما) إلى البرتغال تسبقه شهرته .. لابد من بعض المذابح هنا وهناك كـى تكسب الهيبـة ، وكـان يؤمـن بهـذا وقد نفذه بعناية ..

عاد إلى البرتغال رجلاً ثريًا ، لكنه كذلـك لـم يتخـل عن رغبتـه فـى احتـلال كتب التـاريخ .. لم يكـف لحظـة واحـدة عن وصـف معاناته إلى أن بلغ الهند ، وكيـف اختـرع الأسـطرلاب والحقـة .. آسف .. البوصلة ..

تماثيله التذكارية فى كل مكان ، وأسرته تنعم بالألقاب ..

عام 1524 أصدر له الملك أمرًا :

ـ « ستعود إلى الهند .. »

إن (إدواردو دى منديز) نائب الملك فى البرتغال رجل ضعيف الشخصية .. يبدو أنه لابد من استبداله برجل بارع حقًا ..

قبل (دا جاما) المهمة وانطلق من جديد نحو الهند فى رحلته الأخيرة ..

فى رحلة الذهاب هذه مرت السفينة جوار سفينة أخرى برتغالية يقف على سطحها رجل ملتح ثقيل الظل يلبس نفس الثياب عريضة الكتفين ..

قيل له إن هذا القائد يدعى (فرناندو ماجلان) .. يبدو أنه سيذهب فى مهمة خطيرة للبحث عن الهند غربًا ..

- « يبحث عن الهند غربًا ؟.. هذا جنون ! »

لكن (ماجلان) سوف يفعلها ، وسوف يكتشف أمريكا الجنوبية ومضيق ماجلان ، ولسوف يكون أول رجل دار حول العالم وبرهن على أن الأرض كروية .. لكن هذه قصة أخرى جديرة بكتيب آخر يا (عبير)..

(دا جاما) يعود إلى الهند ..

يقول لمن حوله :

ـ « س .. س .. سوف .. أ .. أعل .. أعلم .. هؤلاء .. الهن .. الهنود .. كيف .. كيف .. »

لا يوجد خطأ مطبعى هنا .. إن شفتيه تهتزان .. بل كل شىء فيه يهتز ..

لا يجب أن تكون طبيبًا كى تعرف أنه أصيب بالملاريا ..

فى هذا الوقت لم يكن أحد يعرف (الكينين) وبالنسبة لشخص لم يصب بها من قبل كانت المضاعفات خطرة ..

هكذا سقط فى غيبوبة ، وصار طبيب تلو آخر يدخل ليفحصه ثم يخرج وهو يهز رأسه فى قنوط .. لابد أنهم أجروا له الكثير من كئوس الهواء والفصد لكنه فى النهاية مات ..

سوف يدفن فى الهند لفترة ، ثم تطالب البرتغال برفاته فينقل لها عام 1539 ..

بالنسبة للبرتغال هو بطل قومى .. واسمه يتردد فى ملحمة (لا لويسيداس) الملحمة الوطنية للبلاد .. وفيما بعد أطلق اسمه على إحدى فوهات القمر ..

بالنسبة للهنود ولنا هو بحار عظيم .. وسفاح ..

* * *

يجلس (ابن ماجد) العجوز على الأرض متربعًا وقد بلل ريشته بالمداد ، بينما يتراقص اللهب فى المصباح الصغير الموضوع جواره ..

يكتب عن الربابنة الآخرين :

- « غير أن خبرتهم مع ذلك محدودة فهم لم يركبوا البحر إلا من (سيراف) إلى (بر مكران) ، وساروا يسألون عن كل بر أهله ويؤرخون ، وكان فى زمانهم من المعالمة المشهورين عبد العزيز بن أحمد المغربى وموسى القندرانى وميمون بن خليل ، فكان فى زمانهم من النواخذة المشهورة أحمد بن محمد ابن عبدالرحمن بن أبى الفضل بن أبى المصرى .. فيأخذون من كل أحد بره وبحره ويؤرخونه فهم مؤلفون لا مجربون .. »

هكذا ينتقد صاحب الصنعة الآخرين معه فى تلك الصنعة ، لكنه لم يبتعد عن الحقيقة كثيرًا ..

ثم إنه يكتب عن أهمية ركوب البحر :

- « إن لركوب البحر أسبابًا كثيرة فأهمها وأولها معرفة المنازل والأخنان والدير والمسافات والباشيات والقياس والإشارات وحلول الشمس والقمر والرياح ومواسمها ، وكذلك مواسم

البحر والآلات السفينية وما يحتاج إليها ومـا ينفعها وما يضطر إليها فى ركوبها ، وينبغى أن تعـرف المطـالع و الاسـتوائيات وجلسة القياس فى كل طريقة وأن تكمل جمع الآلة فى السفينة ، وتتفقد الحمولة فى أحضان السفينة ورجالها ، ولا يشحنها غير العادة ولا يطلع فى مركب لا يطاع فيه ، ولا مركب بغير اعتداد ، ولا فى موسم ضيق .. »

كانت (عبير) جالسة أمامه تبتسم متظاهرة بالفهم ، لكنها فـى الحقيقة لا تستوعب حرفًا تقريبًا مما يقال ..

فيما بعد ستعرف أن الأخنان هى الاتجاهات والباشيات هى قياس العمق ، والدير هى الشواطئ ، وموسم الضيق هو ما قبل العاصفة ..

كان قد فرغ لتوه من مهمة إرشاد صعبة أخرى هى الوصول بسفينة من مضيق هرمز إلى جدة .. وقد اتخذ طريقًـا بعيدًا عن الشاطئ وهذا برغم مقاومة الرياح الشمالية له .

ثم إنه تناول كتابه الذى فرغ الخطاط من زخرفة كعبه ..

(الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد)..

هذا هو الكتاب الذى سيخلد اسمه فى علم البحار ، والذى ألفـه فى ثمانية أعوام ..

فى هذا الكتاب وصف أصول الملاحة وحجر المغناطيس ومنازل القمر والنجوم التى تقابل أقسام الإبرة المغناطيسية الاثنين والثلاثين . كما أنه وصف الثغور فى المحيط الهندى والبحر الصينى وساحل الهند الغربية وجزيرة العرب وجزيرة القمر وزنجبار وجزيرة البحرين . كما يصف البحر الأحمر بالتفصيل .

إنه واحد من أربعين كتابًا عن البحر .. كلها كتبت بالشعر لتسهيل حفظها ..

يتناول كتابًا آخر يرمقه فى رضا ..

(حاوية الاختصار فى أصول علم البحار) ..

قالت له (عبير) وهى تخرج جهاز التسجيل :

- « هل صار ذهنك صافيًا الآن بما يكفى كى تجيب عن أسئلتى ؟ »

* * *

18ـ وداعًا ابن ماجد ..

قد راح عمرى فى المطلعات وكثرة التساؤل فى الجهات

وكم رأيت فى خطوط الشول ونظمهم والنثر والفصــول

وكم نظرت فى الحساب العربى وحسبة للهند مذ كنت حبى

أحمد بن ماجد

* * *

قالت له وهى ترمق لهب المصباح المتراقص :

ـ « ألست نادمًا ؟ »

قال وهو يرمق حروف كتابه بعينين لا تريان تقريبًا :

ـ « نعم .. لست نادمًا .. عندما قابلت (دا جاما) لم أفعل سوى ما يجب أن يقوم البحار لبحار آخر .. »

ـ « كنت قد سمعت عن البرتغاليين وفظائعهم .. »

ـ « لم أسمع عن هذا قبل تلك اللحظة لكننى سمعت الكثير الآن .. إن من صنع السيف قد تسبب فى إراقة دماء غزيرة لكننا لا نلومه بل نلوم من يقتل بالسيف .. »

ثم تحسس رأسه بكفيه وبدا كأنه مرهق جدًا .. وقال :

ـ « نخاف أن يدركنا الموت ونوادر الحكم فى القلوب .. »

قالت له فى غباء :

ـ « لا أفهم .. »

بدا عليه الضيق ، وكرر ما قاله بعبارة أقرب لفهمها :

ـ « أخاف أن أموت وما زال عندى بعض العلم لم أنقله لمن بعدى .. سوف يؤلف ابنى كتابًا عن البحر .. وسوف يبحر البحارة فى الملايو حاملين كتابًا اسمه (قواعد ابن ماجد) .. لكن ما زال عندى الكثير .. »

هنا سمعت (عبير) خطوات المرشد ..

نظرت للخلف فرأت أنه جاء فعلاً ، لكنه اتخذ مجلسه قرب الشيخ ونظر له باحترام ثم قال لها :

ـ « المرء يشعر بحيرة بين الفخر بأن (ابن ماجد) قاد البرتغاليين للهند ، وبين الدفاع عنه بكونه لم يفعل .. ما زالت القضية ساخنة تعقد من أجلها المؤتمرات العلمية .. فى لشبونة عام 1998 عقدت ندوة اسمها (ابن ماجد) والغرض منها تبين الحقيقة .. هناك ندوة (تاريخ العلوم عند العرب) التى عقدت فى

اللاذقية بسوريا .. هناك مؤتمر عمان فى التاريخ .. السؤال مستمر والبعض ارتاح لإجابته : لم يلتق (ابن ماجد) و(دا جاما) قط، بينما البعض اطمأن إلى أن (ابن ماجد) هو من قاد (دا جاما) إلى الهند .. هذا يشبه السؤال الهوميرى الشهير : هل وجد هوميروس فعلا ؟ »

نظرت (عبير) إلى (ابن ماجد) متسائلة فقال باسمًا :

ـ « أنت حضرت رحلتى ورأيت كل شىء ، ثم تسألينني إن كانت قد حدثت أم لا ؟ »

قالت وقد بدا لها موقفها سخيفًا :

ـ « معك حق .. على كل حال تصر الكتب الدراسية فى كل مكان على أن ما حدث بالفعل هو ما رأيته معك .. »

ـ « وهو ما كان .. »

ثم نظر خارج النافذة إلى الخليج حيث ترسو بعض مراكب الصيادين فى ضوء الغروب الخافت الباعث على الشجن ، وقال :

ـ « ما يبقى من المرء هو ذكره وكتاب أضافه وسفينة نجت من الإعصار بفضل تعليماته .. فيما عدا ذلك لا قيمة لشىء .. »

ثم تنهد فى عمق وأضاف :

ـ « فاسكو دا جاما ظفر بأشياء كثيرة بدوره .. تماثيله فى كل مكان واسمه فى كل الكتب .. سوف نلتقى هناك فى الجانب الآخر ووقتها نعرف من المنتصر حقًا .. »

وهز رأسه فى نفاد صبر :

ـ « أرجو أن تتركانى وحدى فلدى الكثير مما يجب أن أدونه .. »

اتجهت (عبير) مع المرشد إلى الباب ..

هناك وقفت طويلاً ترمق الشيخ الجالس أمام قرطاسه يدون ما يذكره من علوم البحار ، فأحست أنها ترق له كثيرًا ..

تمشى مع المرشد فوق رمال الساحل .. هناك تقف سفينة الصيادين تلك وبحارتها يتأهبون للإبحار .. يساعدها المرشد على الصعود ، ولم تسأل عن سبب ركوبهما سفينة هذه المرة بدلاً من قطار فانتازيا .. فقط كانت السفينة تتأرجح بقوة فتمنت إلا يغلبها دوار البحر .. من الغريب أن تفرغ معدتها بعد مغامرة كاملة قضتها فى البحر ..

يقف (المعلم) وريس البحارة ممسكًا بالدفة .. يرفعون الهلب وتبدأ السفينة تتوغل فى البحر ، فيرفع عقيرته صائحًا :

ـ « الفاتحة لابن ماجد ! »

نعم .. الفاتحة لابن ماجد .. المعلم .. أسد البحار ..

* * *

في القصة القادمة تظل (عبـير) فى عـالم التـاريخ العربى .. لكنها هذه المرة تقابل شـاعرًا مخيفًـا .. شـاعرًا عبقريًـا بحق .. وقد أورده لسانه الطويل موارد التهلكة ..

* * *

تمت بحمد الله

روايات مصرية للجيب

فانتازيا

مغامرات ممتعة
من أرض الخيال



د. أحمد خالد توفيق

بحّاران

الأول أوربى بلغ به الطموح مبلغه، ومن أجله كان على استعداد لأن يفعل كل شىء وأن يرتكب أية فظائع .. الثانى عربى أطاع قانون البحر حتى النهاية . الأول خلد نفسه فى مئات الصور والنصب التذكارية، والثانى خلد نفسه فى مجموعة من الكتب القيمة ودعاء يردده بعض البحارة ..

بحّاران .. التقيا فى مهمة واحدة ثم افترقا ... وبقيت قصتهما المثيرة التى تعيشها (عبير) ...

العدد القادم
عبقرى آخر

الثمن فى مصر 400
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم



